

الموسوعة الصغيرة
٩٥

الادب ومعارك العرب المصيرية

تأليف

د. عادل جاسم البياتي


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منشورات دار الجاحظ للنشر

١٠ تموز ١٩٨١ الجمهورية العراقية



الموسوعة الصغيرة
٩٥

الأدب ومعارك العرب المصيرية

د. عادل جاسم البياتي

تقديـــم :

تهدف هذه الدراســة الى تأصـيل « أدب المقاومة » وتعمل على ابراز سمات الشــعر الذي جادت به القريحة العربيــة قبل الاســلام وبعــده واقفــة عند اخريات العهــد الراشدي ، فالمقصود بالمعارك المصيرية ، هي اللقاءات الكبيرة الحاســمة التي دارت على الساحة العربية ضد الاجنبي المحتل قبل الاسلام ثم بوجه خاص على ساحتى «القادسية واليرموك» في الاسلام ، فدخل معها الشعر الــذي ناجز العــرب به اليهــود ودسائســهم العنصرية الاسرائيلية في عصر الرسول (ص) كما ناجز احلافهم الوثنيين لارتباطهما بالتآمــر الدولي يومئــذ مــع الاحباش الاثيوبيين والفــرس الساسانيين والــروم البيزنطيين لضرب الصيغة العربية الاسلامية الطالعة يومئذ ، والسائرة بالامة نحو التحرر والوحدة وبناء الوطن المتين ، وبالعالم نحو آفاق انسانية رحبــة ومشرقـــة .

هذا وسنتابع في المســتقبل دراســة الادب ومعارك المصير في العصر العباسي ثم الادب والحروب الصليبية ، ثم أخيرا الادب ومعاركنا المصيرية ضد **العدو الصهيوني .**



القسم الاول

أدب المعارك المصيرية قبل الاسلام

يقف « ادب الصراع العربي ضد المحتل الاجنبي » او « ادب المعارك القومية المصيرية » الى جانب بقية الاتجاهات الادبية في اغراض التعبير عن مختلف الموضوعات ، على مستوى من الغزارة والعمق ، بشكل لا يمكن تغافله او تجاوزه ، بل هذه الظاهرة من الوضوح ، بحيث تستدعي الوقوف عندها ، والاستقصاء والدراسة لابعادها .

وقد بلغ من شغف العرب بمصيرهم ، ومن حرصهم على عرضهم وارضهم ، ومن نخوتهم في الذود عن ذمارهم وحياضهم ، ان اولوا ادب معاركهم القومية اهتماما كبيرا يسمو في منزلته على كل غرض سواه في الاتجاه الادبي ، حتى لقد جعلوا لكل معركة بطلا قوميا ، رمزوا به الى عمق الصراع وشدة المقاومة العربية ، فورثنا طائفة من ابطال الروايات والقصص والملاحم الشعرية والسير الشعبية ، ما اذا احصيت استغرقت الصفحات ، فكان سيف بن ذي يزن مثلا ، رمزا قوميا وبطلا ملحميا ، يتردد اسمه في اشعار المعارك المصيرية ضد احتلال الاحباش لارض الجنوب العربي ، حتى صيغت الملحمة الكبيرة حول اسمه وتحولت الى

سيرة شعبية ترددها الجماهير العربية منذ اكثر من الف وخمسمائة عام الى يومنا هذا ، دون ان تفقد عطاءهـا وقـوة أسـرها في الاحـداث والمضـامين والشخصيات ، بل ان الزمن ليمر وجمال الملحمة يزداد ، والسبب بسيط جدا ، هو امتداد الحدث في حياة العرب في صيغ متشابهة مع الحفاظ على الاصالة ، فلم يزل العربي ، ذلك الشـهم الغيور المحب لوطنه وقومـه ، والرافض لاشـكال الذل والعبودية ، وان شخصية (سيف) ترجمة حقيقية وانسانية لاعماق الحاضر ، لان سيف الذي انتفض في وجه الفرس الساسانيين والاحباش الاثيوبيين ، هو نفسه اليوم ينتفض في صورة مائة مليون عربي في وجه احفاد اولئك الذين عرفناهم في التاريـخ بأسماء مغايرة لما عليها اليوم . وقد كان المثنى بـن حارثة الشيباني بطلا آخر من ابطال الصراع القومي قبل الاسلام وبعده ، وذلك بوقوفه في وجه الاحتلال الفارسي وتطهير الارض العربية من جيوشهم ، حتى ان الخليفة ابا بكر (رض) عندما سمع بانتصاراته الكبيرة ، وهو يقاتل الفرس ، وتتحرر على يديه بعض الحواضر العربية ، ويسـير بقواته شمالا الى البحريـن حتى تمكـن مـن تحريـر «القطيف» و «هجر» ، وبلغ مصب الفرات ودجلة ، وقضى في مسيرته الكبيرة على الفرس وعمالهم ، متابعا السير

فاجتاز الخليج العربي الى الشمال ونزل بالقبائل العربية المقيمة ماوراء شط العرب واقليم عربستان وعقد معهم بعض المعاهدات ، أمر ابو بكر ان يساند المسلمون هذه المسيرة فانضموا اليها ، فكانت مقدمات وقعة القادسية التي ادى فيها الشعر والخطبة والرجز والسجع دورا خالدا في تاريخ الادب العربي ، حيث ذكر الطبري في تاريخه ان سعد بن ابي وقاص ، كان قد جمع الشعراء من امثال أبي محجن الثقفي وابي ذؤيب الهذلي والنابغة الجعدي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي والقعقاع بن عمرو التميمي وقيس بن مكشوح المرادي وطلب منهم ان يعملوا على ايقاظ الشعور القومي والحماس الوطني في نفوس الناس ، ليكون الشعر في المعركة المصيرية سلاحا ماضيا الى جانب اسلحة الحرب الاخرى ، ففعلوا ، فكان صوت الادب من شعر ورجز وخطبة وسجع ومثل ، يعلو حتى تألفت منه ملحمة عظيمة .

وقد بلغ اعجاب الجماهير العربية ببعض ابطالهم مثل « عنترة بن شداد العبسي » حداً ان ارتفعوا به من بطل محلي مغمور تنحصر بطولاته في اهله وقبيلته ، وفي (نجد) على ابعد تقدير ، الى بطل قومي يواجه الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين والاحباش الاثيوبيين، ويصل الى ارض

الصين ، ويمتـد به العمـر الاسـطوري فيحارب الصليبيين . ورسـمت لنا ريشـة الفنان العربي بالكلمات المؤثرة ، بطولة قومية نادرة لفارس عربي غيور على قومه وارضه وعرضه في قصة البراق بن روحان ، وهو يقاتل جند كسرى قبل الاسلام ، ليستنقذ ابنـة عمـه ليلى بنت لكيز التي وقعت في براثن الملك المجوسي الذي اختطفها وجعل يعذبهـا تعذيبا وحشيا ، يضربها بالسياط ، ويكويها بالنار ، فكانت تواجههم بغرر الاشعار ، تحملها عنها الرواة والركبان في كل مكان لتحفز العرب ، وتحملهم على التوثب ضـد الفرس المحتلين . ومثل ليلى فعلت صفية بنت ثعلبة الشيبانية ، اخت الفارس العربي عمرو بن ثعلبة الشيباني الذي كان يغير على الجيش الفارسـي ليجلـوه عن الارض العربيـة ، فكانت اشعارها تشـعل براكين الثورة في قلوب الرجال ، وسنلتقي بها بعد قليل . ومثلها ايضا فعلت هند بنت النعمان بن المنذر ملك العرب الذي أنف ان يسلم عرضه وارضـه وقومه غنائـم سـهلة الى الفرس . فكان مصيره القتل غدرا ، حيث خدعه واستدعاه كسرى ، فرمى به تحت ارجل الفيلـة فاندلعت بسبب ذلك حرب (ذي قار) المشهورة . ولما كنا بصدد استعراض البطولات العربية ، فلا يصح لنا ان نهمل ذكر الشاعر الفارس لقيط بـن

يعمر الايادي صاحب العينية المشهورة في ايقاظ الامة العربية ضد الخطر الفارسي الذي يداهم ارضهم وعرضهم ومالهم ، وسيتصل بنا الحديث عن البطولات الاسلامية ضد الفرس وضد الصليبيين والمغول والتتر والصهاينة .

ولم اشأ ان استطرد لاذكر كل الملاحم والاعمال الادبية والابطال العرب ، لانني سأعود الى ذكرهم مرة اخرى بشيء من التفصيل مع امثلة لعملهم الادبي الخالد ، لكنني اود ان اعيد القارىء الى اعماق التاريخ العربي لأبين ان حركة المقاومة الادبية للاحتلال الاجنبي كانت قبل العصر الاسلامي وما قبله من العصر الجاهلي . فقد وردت اشارات عديدة لاعمال ادبية صورت لنا مواقف الكتاب والشعراء من احتلال ارضهم وسبي قومهم ونهب اموالهم وتدمير مدنهم وحضارتهم . فهذه قصيدة سومرية ، تعكس لنا الخراب الذي الحقه العيلاميون ، اسلاف الفرس الاخمينيين لعاصمتهم ، حيث عثر على القصيدة في خرائب « نفر » وهي تعبر في صورة رثاء محزن عن انتهاء تاريخ السومريين كقوم مستقلين اخذ العالم القديم عنهم حضارة جديدة لم يعرفها احد . يقول مقطع من القصيدة :

فلما غلبوا ، والنظام خربوا
ثم كالطوفان دمّر العيلاميون كل شيء
فالى أي حال يا سومر بدّلوك
فالسلالة المقدسة من المعبد اجلوها
وخربوا المدينة ، والمعبد دمروه
وحكم البلاد اغتصبوه
وبأمر (انليل) ، النظام محوه
بروح (آنو) العاصف الهائج قضى على النظام
وحوّل (انليل) نظره الى أرض غريبة
وسيق (أبي ــ سن) المقدس أسيراً الى عيلام .

ولا اريد أن افصل في حجم الضرر الذي اصاب البشر يومئذ من قيام الغزو الايراني بتدمير سومر ، لكنني سأورد ما جاء في كتاب سيتون لويد (عن تاريخ العراق منذ اقدم عصوره حتى الان) حيث يسوق المؤلف مديح السير ليونارد وولي ، لما ساهم به السومريون في تقدم الحضارة العالمية حيث قال : لقد كانت حضارتهم التي نورت عالما كان لايزال في غياهب الحياة المتوحشة ، العلة الاولى في بناء الحضارة فلقد مضى الزمن الذي كانت ترجع فيه اصول جميع الفنون الى بلاد الاغريق ، كاملة النضج من دماغ زفس الاوليمبي ،

فلقد صرنا نعرف الان ان زهرة تلك العبقرية قد اجتذبت رحيقها من الليديين والحثيين ومن فينيقيا وتكريت ومن بابل ومصر ، ولكن جذور تلك الزهرة تمتد الى ابعد من ذلك ، الى سومر ، اقدم هذه الامم . ان فتوحات السومريين وفنونهم وصناعاتهم التي بلغوا بها شأوا بعيدا ، وان نظمهم الاجتماعية ومبادئهم الاخلاقية وحتى ديانتهم لم تكن حدثا منفردا بنفسه او موضوعا اركيولوجيا شائقا ، بل ان ذلك جميعه ليس الا جزء من كياننا يستحق ان نعنى بدرسه ، واذا وجب علينا الاعجاب بهم ، فاننا في الواقع ، نمتدح اسلافنا بالروح ، هذا ما قاله السير (ليونارد وولي) معلقا على هذه الحضارة التي رثتها القصيدة المذكورة ، واوردناه مثالا حيا على ان الادب كان في المعركة منذ اقدم ازمانه ، كما تدلنا القصيدة على معنى آخر أخذه العبرانيون فيما بعد واودعوه في ماثورهم العبري ، وهم يتحدثون عن حروبهم وهزائمهم ، فيعزون سقوط « يهوذا » و « اسرائيل » نتيجة لاثامهما ، فكان يهوذا يعارض دائما سياسة الاعتماد على العون الاجنبي ـ كما اورد الباحث سبيتينو موسكاتي ـ بينما كان اسرائيل يدعو الى الاستسلام لبابل التي اختارها الله لعقاب شعبه الضال .

ولعل اقدم ما بأيدينا من النزاع العربي الاجنبي ، فيما يخص العرب الجزيريين تلك الحركة

التي قادها البطل القومي المشهور الذي تطرقنا الى ذكر اسمه قبل قليل ، وهو سيف بن ذي يزن ، ضد الاحباش الاثيوبيين الذين حاولوا ان يفرضوا احتلالهم على الجنوب العربي وسيطرتهم على مدنه وموانئه وطرق تجارته ، فاندلعت حركة المقاومة العربية والهبت الارض نارا تحت اقدامهم ، متخذة اشكالا من الرفض والثورة ، لكن القوة العسكرية التي في يد الاحباش كانت تفوق القوة التي في يد الثوار الوطنيين ، لان الاحباش كانوا يستعينون بالروم البيزنطيين ، مقابل قيام الطرف المحتل بتمهيد الطرق الستراتيجية للحليف بحكم ما بينهما من تواصل دين واحد ، مما اضطر سيفا ان يرحل الى (القيصر) ليقنعه بضرورة التحول عن مساندة المحتل الى الدخول في تحالفات شرعية وطبيعية مع العرب ، لكن القيصر رفض ذلك ، فاضطر (سيف) على المسير الى اعداء الروم ، وهم الفرس الساسانيون ، فجعل يستعدي هذه الامبراطورية على تلك ، ويستنفرها لتمده بما تستطيع من القوة والسلاح . وقد ذكر شعر المعارك هذه العملية الذكية التي قام بها سيف ، فقال ابو الصلت الثقفي :

ليطلب الثأر امثال بن ذي يزن
ريّم في البحر للاعداء أحوالا

يمّمَ قيصـــر لما حـان رحلتـه
فلم يجـد عنده بعض الذي سالا
ثم انثنى نحـو كسرى بعـد عاشرة
مـن السنـين يهـين النفس والمالا
حتى أتى ببني الاحـرار يحملهـم
إنك عمـري لقـد اسرعت قلقالا
لله درهـم من عصبـة خرجت
ما إن أرى مثلهم في الناس امثـالا

وكان العرب يطلقون عبارة بني الاحرار على كل امة لم يدخل ارضها اجنبي ، فلما خسر الفرس امام العرب في معركة ذي قار والقادسية ونهاوند ، لم يعودوا يطلقون عليهم هذا الاسم . ولمـا تحقق لسيف ما كان يطمح اليه ، بعد قصـة لقائه مـع كسرى ، لا أرى موجبا لايرادها هنا ، جاء بالقـوة العسكريـة ، وعبر بها البحـر حتى نزل على الشواطىء العربية ، واراد أن يستوثق لنفسه ، ويتأكد من عدم غدر حلفائه به ، فأحرق السفـن بعـد أن انزل منها ما فيهـا من العدة والرجـال والسلاح وألقى خطبته التي هدد فيها جميـع المقاتلين إن لم يخلصوا في حربهم وقتالهم فانهـم سيكونون طعاما لسيوف الاحباش اذا اندحروا أو لوحوش البحر ان انهزموا ، فصارت هذه الخطة العسكرية والخطبة الحماسية تقليدا أدبيا عسكريا

اقتدى به القادة العرب فيما بعد ، فاستخدمها السفّاح التغلبي حين هرق ماء جنده وهددهم ان هم لم ينتصروا ماتوا عطشا في الصحراء ، أو قتلوا على يد الاعداء . وكان اشهر من استخدمها هو القائد العربي طارق بن زياد ، ثم اخذها عنه القادة الاوربيون لدى اقتحامهم المدن الساحلية في اثناء حملة الاستكشافات والاستعمار . وقد قمت بدراسة هذه الظاهرة تحت عنوان « الموثبات في الادب العربي » واوردت لنا المصادر العربية طائفة من أدب العرب نلحقه بأدب المعركة ، يتعلق بانتصار سيف بن ذي يزن على الاحباش. فمن قبيل ذلك الخطب الحماسية التي القتها الوفود العربية امام (سيف) وهي تقدم له التهنئة بالفوز القومي الكبير ، فكان ممن قدم عليه وخطب أمامه عبدالمطلب ابن هاشم ، جد رسول الله (ص) ، دخل على سيف ابن ذي يزن فوجده جالسا وسيفه بين يديه ، فقال عبدالمطلب .

« ايها الملك . إن الله أحلك محلا رفيعا ، صعبا منيعا ، باذخا شامخا . وانبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، ونبل أصله ، وبسق فرعه ، في اكرم معدن ، واطيب موطن . فأنت ـ أبيت اللعن ـ رأس العرب ، وربيعها الذي تخصب ، وملكها الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد،

ومعقلها الذي اليه يلجأ العباد . سلفك خير سلف ، وانت لنا بعدهم خير خلف ، ولن يخمل من انت سلفه . نحن ايها الملك حرم الله وذمته وسدنة بيته . اشخصنا الذي انهجك لكشفك الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهنئة . . » وهي خطبة طويلة . ومدحه أمية ابن ابي الصلت مفتخرا بنصره القومي الكبير فقال :

جلبنا النصح تحمله المطايا
الى اكوار أجمال ونوقِ
مغلغلة مرافقها ثقالاً
الى صنعاء من فجٍّ عميق
تؤم بها ابن ذي يزن وتفري
بطون خفافها أم الطريق
ونلمح من مخايله بروقاً
مواصلة الوميض الى البروق
فلما واقعت صنعاء صارت
بدار الملك والحسب العتيق

ولما نجح (سيف) في خطته ، وطرد الاحباش، بدأت متاعبه الجديدة مرة اخرى مع الفرس ، وشعر انه عندما طرد الاحباش بقوة عسكرية من الفرس انما استبدل سيدا بسيد ، فأخذ يعمل من جديد على طرد الفرس الذين تغلغلوا في الارض العربية . حقا ، لقد كان اعتداء أبرهة الاشرم

على الكعبة حافزا من حوافز ثورة (سيف) على الاحباش ، يضاف الى ما لقيه العرب من الاذى والتسلط على يد جيش ابرهة ، الا انه بعد هذا كله ، ثار لما كان يراود اجفانه من حلم كبير في استعادة رقعة الوطن السليب وتوحيده تحت حكم عربي واحد ، لذلك ندم على السماح للفرس أن تطأ اقدامهم أرض الجنوب العربي ، وللسبب نفسه جعلت الاسطورة الشعبية من (سيف) مقاتلا عملاقا يحرر جميع الاراضي العربية . ويتجه الى الاراضي البعيدة ، فاستقر في اعماق الذاكرة العربية رمزا لبطل الحرية والاستقلال القومي ، استمر تأثيره ممتدا في زخم وعطاء يرفد الادب العربي حتى العصور الاسلامية المتأخرة ، وذلك بظهور الملحمة الوطنية المعروفة بسيرة سيف بن ذي يزن . واذا كان سيف قد هلك وهو في أوج صراعه ضد الفرس ، فان النعمان بن المنذر تسلم الراية من (سيف) ، لان (النعمان) هو الذي أخذ سيف بن ذي يزن الى كسرى لطلب المعونة العسكرية ، فلما رأى ظلم الفرس وتماديهم في ضلالهم ، اخذ النعمان يتنصل من جميع التزاماته معهم ، فكان يتحين المناسبة ليعلن الثورة العربية في وجه كسرى وجنده الذين يتجولون في الاراضي العربية

وينهبون اهلها وخيراتها ، فكان ذلك عندما بعث كسرى الى النعمان يطلب منه ان يبعث اليه بابنته هند بنت النعمان وبعض النساء العربيات كان كسرى قد ثبت أوصافهن ومحاسنهن في الكتاب الذي بعث به اليه . فغضب النعمان واجاب كسرى اجابة مهينة ، وجعل يتنقل بين القبائل العربية يؤلبها على الفرس ويعلن الحرب المقدسة ضدهم . وقد صور لنا زهير بن ابي سلمى استجابة قبيلة بني عبس لصيحاته القومية في مواجهة الخطر الفارسي :

فلم أرَ مسلوباً له مثل قرضه
أقلَّ صديقاً معطياً ومواسيا

سوى أن حياً من رواحه اقبلوا
وكانوا قديماً يتقون المخازيا

يسيرون حتى حبّسوا عند بابه
ثقال الروايا والهجان المتاليا

فقال لهم خيراً وأثنى عليهم
وودعهم وداع الاّ تلاقيا

ثم انصرف النعمان ، فسقط في ايدي الفرس فقتلوه، ورثاه النابغةالذبياني بعد زهير بنابي سلمى في قصيدته اليائية المتقدمة التي استشهدت بأبيات منها ، ورثاه لبيد بن ربيعة أيضا ، ولم أر رجلا عظيما قبل الاسلام رثاه ثلاثة شعراء عمالقة من

اصحاب المعلقات مثل النعمان بن المنذر حين رثاه النابغة وزهير ولبيد ، وما ذلك منهم الا لموقع النعمان من نفوسهم ونفوس العرب ، وهي مكانة أملتها مواقفه القومية واستشهاده في سبيل عزة العروبة وشرفها . وكان النابغة قد قال فيه في حياته :

فان يهلك ابو قابوس يهلك
ربيع الناس والشهر الحرام

فرثاه وقال :

قل للهمام وخير القول اصدقه
والدهر يومض بعد الحال بالحالِ
ماذا رزئنا به من حية ذكر
نضناضة بالرزايا صلّ أصلال
وغّالةٍ في دجى الأهوال ان نزلت
حرّاجة في ذراها غير زمّال
ماضٍ يكون لها جد اذا نزلت
حرب يوائل منها كل تنبال

ورثاه لبيد فقال من قصيدة طويلة :

ليبكِ على النعمان شَرب" وقينة
ومختبطات كالسعالى ارامل
له الملك في ضاحي معد واسلمت
اليه العباد كلها ما يحاول

اذا مسّ أسـار الطيور صفت لـه
مشعشعـة ممـا تعتق بابـل
فيوماً عنـاة بالحـديد يفكّهـم
ويوماً جيـاد ملجمـات قوافـل
وبالرسّ أوصـال كأن زهاءهـا
ذوي الغمـر لما زال عنها القبـائل
وغسـان ذلّت يـوم جلّق ذلـةً
بسـيدها والأريحـي المنـازل
رعى خرزات الملك عشـرين حجـةً
وعشرين حتى فاد والشيب شامل
فلما علمت هند بنت النعمان بمقتل ابيها ،
ومسير الجيش الفارسي اليهم ، وكانت مختفية في
بعض القبائل العربية ، خرجت تنذرهم وتقول :
الا ابلـغ بني بكـر رسـولاً
فقـد جـد النـذير بعنفقير
فليت الجيش كلهـم فـداكم
ونفسي والسـرير وذا السـرير
كأني حـين جـدّ بهـم اليكم
معلقـة الذوائب بالعبـور
فلـو اني اطقت لذاك دفعـاً
اذاً لدفعتـه بدمـي وزيـري
واطلق مثل هذا الانذار لقومـه ، لقيط بن
يعمر الايادي ، يعلمهم بمسير جيش الفرس اليهم،
حيث ارسل بصحيفته المشهورة :

سلام في الصحيفة من لقيط
على من في الجزيرة من اباد
بأن الليث يأتيكم دليفاً
فلا يشغلكم سوق النقاد
اتوكم منهم ستون الفاً
يزجون الكتائب كالجراد
على حنق اتونكم وهذا
أوان هلاككم كهلاك عاد

واراد الشاعر بلفظة (الليث) مرادفها وهي لفظة (الاسد) وهي راية الفرس التي كانت عليها صورة (الاسد) كما كانت راية العرب هي العقاب المذكور في شعرهم كثيرا قبل الاسلام .

ثم انذرهم لقيط بقصيدته العينية الثانية التي مطلعها :

يا دار عمرة من محتلها الجرعا
هاجت لي الهم والاحزان والوجعا

ويقول فيها :

أبلغ إياداً وخلل في سراتهم
اني أرى الراي إن لم أُعص قد نصعا
يا لهف نفسي ان كانت أموركم
شتى وأحكم أمر الناس فاجتمعا

الا تخافــون قــوما لا أبالكــم
أمسوا اليكم كأرسال الدبى ســرعا

أبنــاء قوم تأوّوكم على حنــق
لا يشعرون أضرّ اللّه' أم نفعــا

في كل يوم يسنون الحــراب لكم
لا يهجعون اذا ما غافــل هجعــا

مالي اراكم نيــاماً في بلهنيــة
وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا

يا قــوم بيضتكم لا تفجعنّ بهــا
اني أخاف عليها الأزلم الجــذعا

يا قــوم لا تأمنــوا ان كنتم غُيراً
على نسائكم كســرى وما جمعــا

هــو الفنــاء الذي يجتث اصلكم
فمن رأى مثل ذا رأيا ومن سمعــا

فقلــدوا أمركم للّــهِ درّكــم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفاً ان رخاء العيش ساعــده
ولا اذا عضّ مكروه به خشعــا

ما انفكّ يحلب هذا الدهر اشطره
يكون متبعــاً طــوراً ومتبعــا

حتى استمرت على شــزر مريرتــه
مستحكم السن لا قحماً ولا ضرعا

لا يطعم النـوم الا ريث يبعثـه
هم يكاد شباه يفصم الضلعا
مستنجداً يتحدى الناس كلهم
لو صارعوه جميعاً في الوغى صرعا
لقد نخلت لكم رايي بلا دخل
فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

فلما بلغ كسرى شعر لقيط قتله ، وكان كاتبه بالعربية وترجمانه ، فهو أول شاعر شهيد يرد ذكره في أدب المعارك المصيرية .

وكانت قبائل عربية متفرقة في الارض العربية تدير معارك أخرى في نفس اتجاه هذه المعارك . وتأتي قصة ليلى بنت لكيز زوجة البراق ابن روحان في مقدمة هذه القصص الادبية التي تروي سطور النصر العربي على اعدائهم الباغين ، وتعد نموذجاً آخر من نماذج المقاومة العربية في وجه الاحتلال ، تضاف الى ملحمة ذي قار الكبرى . وكانت ليلى تعرف بالعفيفة ، وهو لقب أضفاه عليها شعبها العربي لوقوفها باباء وشرف ضد نزوات كسرى الغاشمة . وكان ابوها قد نزل بها في ناحية من بلاد العرب يحتلها الفرس ، وكانت من أجمل نساء زمانها ، فأوصل خبرها الى ملك الفرس وقتئذ احد حاشيته ، فقال له الملك :

ـ ما عسى أن نبلغ منها ، والبدوية تفضل الموت على أن يغشاها أعجمي ؟!

فقال :

ـ نرغبها بالمال ومحاسن المطاعم والمشارب والملابس .

وأرسل الملك فانتزعها من ابيها ، ثم عرض عليها جميع ما يرغب فيه الانسان ويشتهيه ، فلم تستجب ، وخوّفها بجميع العقوبات وعاملها بالتعذيب ، ليرى وجهها ، فأبت ، وخيّرته بين ان يقتلها أو يعيدها لأبيها . ولما يئس منها أسكنها في موضع وأجرى عليها المال ، واكتفى برؤيتها على البعد . وكان لليلى ابن عم من بني بكر ، فارس شجاع ، يقال البرّاق ، هبَّ في وجه الفرس يناضلهم ويقاتلهم حتى استطاع أن يخلّصها وكانت ليلى في سجنها تتغنى باشعار شجية وحماسية تثير حمية قومها وغيرة اخوتها وابناء عمومتها :

ليت للبراق عيناً فترى
ما أُلاقي من بلاءٍ وعَنَا

يا كليباً وعقيلاً إخوتي
يا جنيداً اسعدوني بالبكا

عـُـذ ّبت اختكــــمُ يا ويلكــم
بعــذاب النكــر صبحــاً ومســا
غللونـــي قيـــدوني ضـــربوا
ملمس العفـــة مني بالعصــــا
يكـــذب الأعجـــم ما يقربني
ومعي بعض حشاشـــات الحيــا
فأنـــا كارهـــــة بغيكـــــم
ويقـــين الموت شـــيء يرتجـــى
اصبحت ليـــلى بغـــلٍ كفهــا
مثـــل تغليـــل الملـــوك العظمــا
قـــل لعـــدنان هـــديتم شمروا
لبني مبغـــوض تشمـــير الوفــا
يا بني تغلب ســيروا وانصـــروا
وذروا الغفلـــة عنكـم والكـرى

وقالت تفخر بفارسها (البراق) :

بــراق ســـيدنا وفارس خيلنـــا
وهو المطاعن في مضيق الجحفـــل
وعماد هـــذا الحي في مكروهـــة
ومؤمـــل يرجـــوه كـــل مؤمـــل

وكان الفرس قـــد قتلوا أخا البراق غرثان ابن روحان ، فقالت ترثيه :

لمــا ذكــرت غُريشــاً زاد بي كمدي
حتى هممت مــن البلوى باعــلانِ
فلـــو تراني والاشجـــان تقلقني
عجبت برّاقُ من صبري وكتماني
لا درَّ درَّ كليب يــوم راح ولا
أبي لكيــز ولا خيلي وفرســاني
عن ابن روحان راحت وائل كثبــاً
عــن حامــل كل اثقــال واوزان
واسلموا المــال والأهلين واغتنموا
ارواحهــم فكبا زند ابن روحــان
فتى ربيعـــة طــوّافٍ اماكنهــا
وفارس الخيل في روع وميــدان

ورثتـــه ام الاعــز بنت اخت كليب وائل ،
وحرضت بني بكر على الاخذ بثأره من الفرس :

الا فابكـــي أعينــي لا تملّي
فلي بمصابنـــا ابــدأ عويلُ
فلا سلمت عشيرتنـــا وعــادت
اذا صــرع ابن روحان النبيــل
اذا رحتــم وخلفتــم هُبلتم
لغــرثانٍ فلا راح القبيــل
فرحتــم بالغنــائم حين رحتم
وبان بموتــه الغنم الجليــل

تركتم ذا الحفاظ وذا السرايا
وراءكم أضلكم الدليل

فقل لنويرةٍ وكليب مهلاً
أقيما إن خزيكما طويل

ومما يلاحظ من قصة (ليلى والبراق) وقصة النعمان بن المنذر ، أن السبب فيهما واحد، يعود في اساسه الى حرص العربي على أرضه وعرضه وكرامته ، فقد كان كسرى قد طمع بنسوة عربيات يعرف أوصافهن من عهد أبيه أنو شروان ، فتذكر تلك الاوصاف وأعادها على الملك النعمان في كتاب أشرف على تحريره زيد ابن الاديب الشاعر عدي بن زيد العبادي الذي كان يعمل كاتبا ومترجما لدى كسرى كرفيقه الشاعر الشهيد لقيط بن يعمر الايادي ، فكان رد الملك النعمان لكسرى ردا يحمل كل معاني الاباء والشرف والمروءة العربية كما تقدم ذكره ، فقال كسرى لزيد :

ـ واين الذي كنت خبرتني به ؟

قال زيد بن عدي :

ـ كنت خبرتك بضنهم بنسائهم على غيرهم ، وان ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعري

على الشبع والرياش ، وايثارهم السموم والرياح على طيب ارضك هذه ، حتى انهم ليسمونها السجن .

وكان زيد قد قال له قبل ذلك : « ان شر شيء في العرب وفي النعمان خاصة ، أنهم يتكرمون كما زعموا في انفسهم عن العجم » وكان قصده ان يوقع بين كسرى والنعمان ثأرا بأبيه المقتول في سجن النعمان . وسكت كسرى أشهرا ليخدع النعمان ويستدعيه فيقتله ، فلما ارسل اليه ، طاف النعمان في قبائل العرب يبصرهم بحقيقة الموقف ، ثم نزل سرا بذي قار في بني شيبان وهم بطن في بكر بن وائل ، فلقي هانىء بن مسعود أو هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود ، وكان سيدا منيعا ، فجرت بينهم تحالفات وعقود تحسبا ليوم عظيم له ما بعده . وقد كان الفرس قد احتلوا الارض العربية منذ سقوط العاصمة العراقية (بابل) على أيديهم ، الا انهم لم يستطيعوا أن يرتفعوا الى الشمال حيث (نجد) و (الحجاز) وما جاورهما **لمنعتهما ، لكن الفرس** لم يفوتوا على انفسهم أية فرصة تسنح في الايقاع بين العرب القاطنين في الشمال بمختلف الدسائس والمكائد التي يحوكونها بين رؤساء القبائل وساداتهم ، لذلك كان وقوف العرب في يوم ذي

قار عظيما أشــــبه بانفجـــار كبير كانوا ينتظرون حدوثه ، وقد صور الادب ذلك وساهم في المعركة القومية المصيرية اشرف مساهمة بما فيهم المــرأة العربية الشاعرة ، كالرجز المشهور الذي انطلقت به امرأة من عجل :

ان تهـــزموا نعـــانق
وتفـــرش النمـــارق

او تهـــزموا نفـــارق
فــراق غــير وامــق

وهي اهزوجة طويلة مروية في مصادر الادب القديمة ، وقد اعادت صياغتها هند بنت عتبـــة في يوم أحد عند لقاء قريش بالمسلمين . وارتفع صوت الخطبة الحماسـية عاليا في هذا اليوم الشريف ، فخطب هاني بن قبيصة في الناس يحرضــهم على الحرب في يوم ذي قار :

« يا معشر بكر ، هالك معذور ، خير من ناج فرور ، ان الحذر لا ينجي من القدر ، وان الصبر من اسباب الظفر . المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن في ثُغَرِ النحور اكرم منه في الاعجاز والظهور . يا آل بكر قاتلوا ، فما للمنايا من بد . . » . وكان حنظلــة بن ســيار

العجلي احد القادة المرموقين بذي قار وكان شاعرا ، فاستخدم سلاح الادب بكل قوته وحدته في المعركة ، فكان يرتجز ويقول :

مَنْ فرَّ منكم فرَّ عن حريمهِ
وجاره وفرّ عن نديمهِ

أنا ابن سيار على شكيمهِ
ان الشراك قُدَّ من اديمه

وكلهم يجري على قديمه
من قارح الهجنة أو صميمه

فهو يحث الناس على الثبات والصمود ، ويذكرهم بأن الهزيمة تعني ترك النسوة والاهل والاطفال والمال سبايا منهوبين بأيدي الفرس ، وهو شيء يأباه العربي الاصيل الذي عرف بقديمه وجديده الناصعين . وقد كان الناس قد خدعوا بمظهر اللباس والبزة العسكرية والسلاح التي تغطي الفرس عندما وقف الجيشان متقابلين ، فصرخ عمرو بن جبلة اليشكري مدويا :

يا قوم لا تغرركم هذي الخِرقْ
ولا وميض البيض في الشمس بَرَقْ

من لم يقاتل منكم هذه العنقْ
فجنبّوه الراح واسقوه المرقْ

وقد كان لهذا النصر مغزاه العميق في نفوس

العرب الذين لاقوا الاذى على أيدي الفرس العنصريين، لذلك جرت محاسبة الخائنين والمتخاذلين والفارين المهزومين والجبناء شديدة وصارمة فجردوهم من كل شرف ، لان هذا اللقاء العربي الكبير كان امتحانا للجميع ، فجعل الشعراء يهجون من سنحت له فرصة المساهمة ولم يساهم ، او اتيح له شرف الكفاح وتأخر عنه ، خائنا او متخاذلا او جبانا ، بل سلبوهم الشرف بسبب ذلك ، فهذا الاعشى يصف الانتفاضة القومية الكبيرة ، ويلوم القبائل التي لم يلحقها شرف النضال او الاستشهاد:

أما تميم فقد ذاقت عداوتنا
وقيس عيلان مسَّ الخزي والاسف

وجند كسرى غداة الحنو صبحّهم
منا غطاريف ترجو الموت فانصرفوا

لقوا ململمة شهباء يقدمها
للموت لا عاجز فيها ولا خرف

فرع نمته فروع غير ناقصة
موفّق حازم في أمره أنف

فيها فوارس محمود لقاؤهم
مثل الاسنة لا ميل ولا كشف

بيض الوجوه غداة الروع تحسبهم
جِنّان عِين عليها البيض والزغف

لما رأونا كشفنا عن جماجمنا
ليعلموا أننا بكر" فينصرفوا
قالوا : البقيةَ ، والهندي يحصدهم
ولا بقية الا السيف ، فانكشفوا
لو أنّ كل معد كان شاركنا
في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما أتونا كأنّ الليل يقدمهم
مطبّق الارض تغشاها بهم سُدَفُ
بطارق" وبنو ملك مرازبة"
من الاعاجم في اذانها النُطَفُ
من كل مرجانة في البحر احرزها
تيارها ووقاها طينها الصدف
وظعننا خلفنا تجري مدامعها
اكبادها وجلا مما ترى ، تجِفُ
كأنما الآل في حافات جمعهم
والبيض برق بدا في عارض يكِفُ
يحسرن عن أوجه قد عاينت عبراً
ولاحها غبرة الوانها كسفُ
ما في الخدود صدود عن وجوههم
ولا عن الطعن باللبات منحرف
لما أمالوا الى النشاب أيديهم
ملنا ببيض فظلّ الهام يُقتطف

وخيل بكر فما تنفكّ تطحنهم
حتى تولّوا وكاد اليوم ينتصف

ومضى الاعشى في قصيدة ثانية يعير بعض رجال القبائل الذين خانوا قومهم وذهبوا الى العدو يساومونه ويقاضونه ويبدون ضروبا من الخنوع والذل والاستسلام ، مثل قيس بن مسعود ، وكان قد شارك مع الفرس في غزو العرب ، ووفد بعد هزيمة ذي قار على كسرى يعتذر له ويطيب خاطره، فهجاه الاعشى وعيّره بقيامه في غزو العرب ثم زيارته لعدوهم كسرى زيارة ذل واستسلام وعار فقال :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد
وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل
أطورين في عام غزاة ورحلة
الا ليت قيساً غرّقته القوابل
لقد كان في شيبان لو كنت عالماً
قباب وحيّ حلّة وقنابُل
رحلت ولم تنظر وانت عميدهم
فلا يبلغني عنك ما أنت فاعل
فعرّيت من أهل ومال جمعته
كما عُرّيتْ مما تُمِرّ المغازل
لعلك يوم الحنو اذ صبّحتْهم
كتائبُ موت ، لم تعظك العواذل

كأنك لم تشهد قرابين جمةً
تعيث ضباع فيهمُ وعواسل
تركتهم صرعى لدى كل منهل
وأقبلتَ تبغي الصلح ، أمُكَ هابل

ولعل اجمل ما يصور وحدة القبائل العربية في حرب ذي قار ، قصيدة قالها احد شعراء بني تغلب ، تصف بأسلوب شعري وحماسي معا ، قدوم الفرسان الى الساحة العربية في مواجهة تاريخية فاصلة ضد عدوهم الخارجي ومن اجل معركة قومية مصيرية حيث قال :

ولقد رأيت أخاك عمراً مرةً
يقضي وضيعيه بذات العجرم
في غمرة الموت التي لا تشتكي
غمراتها الأبطال غير تغمغم

وكأنما أقدامهم واكفّهم
سَرَبٌ تساقط في خليج مفعم

لما سمعت دعاء مرة قد علا
وأتى ربيعة في العجاج الأقتم

ومحلّم يمشون تحت لوائهم
والموت تحت لواء آل محلّم

لا يصرفون عن الوغى بوجوههم
في كل سابغة كلون العظلم

ودعت بنـو أم الرقـاع فأقبلـوا
عند اللقـــاء بكل شـــاك مُعْلَمِ

وسمعت يَشْكُرَ تدّعي بحُبيّبٍ
تحت العجاجـة وهي تقطر بالـدم

يمشون في حلق الحديد كما مشت
أســـد العـرين بيوم نحس مظلم

والجمـع من ذهـل كأن زهاءهـم
مشي الجمـال يقـودها ابنا قشعم

والخيل من تحت العجاج عوابساً
وعلى مناسجهـا سحائب مـن دم

ولست ابتغي الاستطـراد وراء عشـــرات القصائد والارجاز التي قيلت في هذا اليـــوم ، فللأعشى وحده في ديوانه أربع قصـائد في هـذه الحرب ولغيره اكثر من قصـيدة ، بل ظل لهيب الشعر متقدا الى الاسلام ، فزاد في شدته يـوم القادســـية ، وظل الشعراء في الاسلام وبعـــد القادسية يذكرون يـوم ذي قار في أشعارهـم . ولعل اوضح من ذكر دفاع العـرب عن أرضهـم وعرصات دورهم هو ابو كلبة التميمي :

لـولا فوارس لا ميـلٌ ولا عزُلٌ
مـن اللهـازم مـا قظتـم بذي قار

إن الفوارس من عجل همُ أنفوا
من ان يخلّوا لكسرى عرصة الدار

وقال العُديل بن الفرخ العجلي :

ما اوقد الناس من نارٍ لمكرمة
الا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدّون من يومٍ سمعت به
للناس افضل من يوم بذي قار
جئنا بأسلابهم والخيل عابسة
لما استلبنا لكسرى كل أسوارِ

ومن غريب ما يروى عن العرب قبل الاسلام، انهم كانوا عقب كل انتصار كبير يجلسون في احتفال جماهيري عظيم تشارك فيه المرأة مشاركة وجدانية ووطنية ، فتقام الافراح ويكرم الابطال وتنشد الاشعار والاهازيج ، وتدار الراح بأيدي النساء الفخورات بالفرسان الشجعان . وقد صورت لنا وقائع كثيرة مثل هذه المهرجانات الشعبية ، فهذا هو الشاعر بكير أصمّ بني الحارث ابن عباد يصف اعياد بني شيبان بعد النصر القومي المصيري الكبير :

إن كنتِ ساقية المدامة أهلها
فاسقي على كرم بني همّامِ
وابا ربيعة كلها ومحلّماً
سبقاً بغاية أمجد الأيام

ضربوا بني الاحرار يوم لقوهم
بالمشرفيّ على مقيل الهام
شدّ ابن قيس شدة ذهبت لها
ذكراً له في مُعرقٍ وشآم

وقد سبق ان بينت بأن العرب كانوا يسمون الامم التي لم يغلبها أحد ولم يدخل ارضها غازٍ أو معتدٍ ، ببني الاحرار ، فلما انهزمت الفرس امام العرب بذي قار والقادسية وسواهما اسقطوا عنهم هذه التسمية . ويلاحظ ان الشاعر يصف اشتهار هذه المعركة قبل الاسلام وانتشار خبرها في العراق والشام وشبه الجزيرة العربية .

ولا أريد ان اتجاوز دور المراة الشاعرة في هذه المعارك القومية المصيرية ، فقد حفلت المظان الادبية بأخبارهن واخبار شجاعتهن وفصاحتهن ومقدار مساهماتهن في صنع النصر لقبائلهن ضد العدو الخارجي المحتل . وقد كنت ذكرت هند بنت النعمان بن المنذر ، وامتناعها على كسرى ورفض أبيها تزويجها له ، فكانت من أسباب هذا اللقاء التاريخي الحاسم . وكان النعمان قبل ان يغدر به كسرى قد هيأ للعرب معركتهم عند ذهابه الى شيبان سرا وتحالفه مع القبائل ، وايداعه السلاح عندهم ثم اوصاهم ان هو لم

يرجع من كسرى بشروطه العربية ظافرا ، فذلك يعني أن كسرى غدر به وقتله ، وعندئذ تتحد القبائل ويستخرجون السلاح المودع لدى هانىء ابن قبيصة وتندلع المعركة . وحقا وقع ما تنبأ به الملك النعمان ، فكانت هند ابنته قد استجارت بشيبان فأجارتها صفية بنت ثعلبة الشيبانية وقامت الى قومها تعلن لهم هذه الاجارة ضد كسرى وجيوشه وتنشد قائلة :

أحيوا الجوار فقد أماتته معاً
كلُّ الأعارب يا بني شيبانِ
ما العذرُ ؟ قد لفت ثيابي حرةٌ
مغروسة في الدر والمرجان
بنت الملوك ذوي الممالك والعلى
ذاتُ الحجال وصفوة النعمان

وعلى الأكاسر قد أجرت بحرّةٍ
بكهول معشرنا وبالشبان

شيبان قومي هل قبيل مثلهم
عند الكفاح وكرّةِ الفرسان
لا والذوائب من فروع ربيعة
ما مثلهم في نائب الحدثان
قوم يجيرون اللهيف من العدا
ويُحاط عمري من صروف زماني

إني حُجيجة وائلٍ ، وبوائل
ينجو الطريد بشطبة وحصان

وكانت صفية تلقب بالحجيجة . تقول المراجع القديمة « فقام بنو شيبان بجوارها وحاربوا جنود العجم وكسروهم كسرة قبيحة ، وغنموا منهم مغانم عظيمة » فقالت صفية في ذلك ، وهي قصيدة طويلة :

قولوا لكسرى أجرنا جارةً فثَوَتْ
في شامخ العز يا كسرى على الرُغْمِ
نحن الذين اذا قمنا لداهية
لم نبتدع عندها شيئاً من الندم
نحوط جارتنا من كل نائبة
ونرفد الجار ما يرضى من النّعم

ولما أرسل كسرى برسله قبيل الحرب الى بني شيبان يطلب اليهم أن تخرج هند بنت النعمان من طاعتهم وتدخل في طاعة أمير عربي من صنائع كسرى يقال له « منصور » لكي تبرىء ذمة الشيبانيين مما فعلوا ، أبت صفية أن تفعل ذلك، وقالت تخاطب رسولي كسرى ومنصور :

قولا لمنصور لا درّت خلائفه
ما صاحَ فيهم غراب البين أو نعقا

يا ويح أمك يا منصـور إنّ لنـا
خيلاً كراماً تصون الجار ما علقا
آلت بنو بكر ترضى ما كتبت بـه
يا ابن الدنيّة ، فاجمل ان اردت بقا

فحاربهم (المنصور) فكسروه ، فعاد الى سيده الملك الفارسي فأمده بعشرين الفاً من العرب والفرس واموال كثيرة ومؤن وافرة وعدد عديدة ، فلما علمت صفية بذلك قالت :

ماذا أحاذر من عشرين يقدمهم
منصور في حيّ غسان على نُجبِ

من الجياد عليها الحيّ من يمن
والعجم ترفل في الماذىّ واليَلَبِ

لاجل عشرين الفاً أُضحَ صارخةً
في آل بكر وذا شيء من العجبِ

لا تكشفوني بهذا اليوم وارتقبوا
يومي لوقت اجتماع العُجْمِ والعرب

تقول الرواية : « فهب القوم ، وتأهبوا للقتال ، وجاءتهم عساكر المنصور بجند كسرى »، فكسر المنصور وتفرقت جنوده بعد جلاد مذكور ، وعاد كسرى منهزما ... ثم جدد كسرى ارسال القوى العظيمة ، فأرسل « الطُميح » وهو من

قواد كسرى ، وكاد يضنّ بدماء قومه العرب ان يهدرها (كسرى) سرأ الى بني شيبان يعلمهم ويحذرهم ؛ فأجابته صفية ، تمتدح شمائله العربية :

لله درك من نصيح صادق
والنصح رأيك أيها الانسان

وهي قصيدة طويلة .

ان ما ترويه المصادر من شعر صفية الشيبانية في هذه المعارك المصيرية كثير جدا ، وقد كانت لها في يوم ذي قار ، عند احتدام النضال ، وقفة عظيمة الى جانب أخيها حنظلة بن ثعلبة الذي عمد الى وُضُن الجمال فقطعها فسقطت الظعائن عنها ، وطلب من الرجال أن يدافعوا عن النسوة اللواتي بقين بلا هوادج (ظعن) فكانت صفية تعاون اخيها في قطع الوضن، فعرف حنظلة باسم : مقطّع الوُضُن ، اي الحبال ، وقالت صفية تحرض القبائل العربية ؛ فخاطبت كل القبائل فرقةً فرقة وقبيلةً قبيلة ؛ فأقبلت على بني حنيفة وقالت :

إيهاً اجيدوا الضرب يا حنيفة
فأنتم الجمجمة الشريفة

أهل اللقا والعمدة المعروفة
والعدة المنسوجة الموصوفة
ان الجيوش حولكم كثيفة
فلا تهلكم وتزدكم خيفة

وخاطبت بني لجيم :

لجيم قومي وبني أبينا
ليسوا لدى الهيجا مغلَّبينا

بل ظافرون وحماة فينا
العز فيهم حين يلجمونا

ويسرحون ثم يحملونا
إيهاً بني الأعمام فانصرونا

ثم الى بني عجل ، وفيهم أبوها واخوها فقالت :

الفخر فخري بسراةِ عجلِ
هم معشري في نجدهم والسهلِ
هم السراة وحماة الأهل
والفائقون بشريف الفعل
إيهاً ابيدوا جمعهم بالقتل
ولا تكونوا غرضاً للنبل
واختلطوا فيهم بغير مهل

ثم الى بني ذُهل :

اليـوم يـوم العز لا يوم النَـدمْ
يـوم رماح وجيـاد وخـدمْ

يومٌ به الارواح جهـراً تُصطَلَمْ
سوف ترى البيض غداة المبتسَمْ

للوائليـات التي تحمي البُهُـمْ
يا آل بكـرٍ لا تهلكـم العجـمْ

ان صبرتْ ذهلٌ فعزّي اليوم تمْ

وسارت ببني شيبان وهم خلفها وهي تقول :

إيهاً بني شيبان صفـاً بعد صفْ
مـن يرد العليـاء لم يخش التلفْ

مـن حـاذر الموت تنحّى ووقفْ
ان الشجـاع باسـل فيه الصلَفْ

ان تقبلوا نظفَرْ ونُحذرْ ونُخَفْ
وفي الفـرار يولجوا فينـا القَلَفْ

اليومَ يومُ العز موصوف الشـرف
ان حافظت قومي فما بي من أسف

انا ابنة العز وعرضي اليـوم عفْ
بكل نصـل كالشهـاب المختطف

نخطف قوماً قد عفونا بسَرَفْ

وكانت هند بنت النعمان بن المنذر تقف الى جانب صفية الشيبانية في معاركها المصيرية رافعة صوت الشعر والرجز عاليا . فمن ذلك قولها تخاطب عمرو بن ثعلبة الشيباني أخا صفية :

حافظ على الحسبِ النفيسِ الأرفعِ
بمدجّجين مع الرماح الشرّعِ
وصوارمٍ هنديةٍ مصقولةٍ
بسواعدٍ موصولة لم تمنع
وسلاهبٍ من خيلكم معروفةٍ
بالسبق عادية بكل سميذع
واليوم يوم الفصل منك ومنهم
فاصبر لكل شديدة لم تدفع
يا عمرو يا عمرو الكفاح لدى الوغى
يا ليث غاب في اجتماعِ المجمع
اظهر وفاءً يا فتى وعزيمةً
أتضيع مجداً كان غير مضيَّع

ولهند بنت النعمان قصائد عديدة في يوم ذي قار ، ومما قالته بعد الفوز :

رغمنا بعمرو انف كسرى وجنده
وما كان مرغوماً بكل القبائل
وهذا قصارى الأمر فاحملْ محسَراً
لكميّك ما بين الظبا والذوابل

وقد عاشت هند بنت النعمان وتزوجت المنذر بن الريان أحد ابناء الملوك في أرض العرب ، واسلم زوجها واستشهد بين يدي رسول الله (ص) في وقعة أحد ، هو وحمزة رضي الله عنه . واتت هند سعد بن ابي وقاص في الحيرة بعد وقعة القادسية تشكو أمرها اليه ، وقالت :

فبينا نسوس الناس والامر أمرنا
اذا نحن فيهم سوقة نتنصَّفُ

فأفٍ لدنيا لا يدوم نعيمها
تقلَّبُ تاراتٍ بنا وتصرَّف

فأكرمها سعد وحفظ لها مقامها ، وعاملها معاملة العظماء ، وخرجت من عنده مغتبطة ، فسألها الناس ما صنع الامير ؟ فقالت :

صانَ لي ذمتي واكرم وجهي
انما يكرمُ الكريمَ الكريمُ

ومن شواعر العرب في هذه الحروب المصيرية (ام ابي جدابة) ولها فيها قصيدة طويلة تهاجي بها المنصور وسيده كسرى ، وكذلك (هند بنت بياضة الايادية) التي قالت في الجموع التي وجهها كسرى الى قومها إياد :

دُعينا لأضياف وقد نزلوا بنا
رفيدة والقين بن حبسٍ وعامرُ
وقد نزلت بهراء خلف بيوتنا
كما نزلت تبغي قِرانا الأساور
فما أن لبثنا ساعة بقِراهمُ
وقد يحمد الرِفدَ السريعُ المبادر

فهي تطلق على العدو المحتل لارضهم اسم : الضيوف ، وتطلق على الموت الذي يذيقونه لهذا العدو اسم (القِرى) وهو طعام الضيف . وهذا المعنى وارد في الشعر العربي قبل الاسلام على سبيل المجاز .

تلك كانت رحلة في اجواء الادب الذي خاض معارك العروبة المصرية في جميع الساحات التي كان يحتلها الاجنبي الغاشم في ساحة اليمن وساحة العراق . وأما الساحة الغربية ، ساحة الشام والاردن ، فان المصادر تذكر لنا اسم ملكة عربية هي الزباء ملكة تدمر ، ذاع صيتها في الغرب لدى الروم البيزنطيين وفي المصادر اليونانية ، وفي الشعر العربي ، حيث عرفت في هذه المواطن كلها غاضبة متمردة الحقت الضرر بجيوشهم التي تحتل الارض العربية ، فعملت على جلائها حتى الجاتها الى اقاصي البلاد التركية واضطرتها على عبور

البسفور ، ثم لما ضعف أمرها اقتيدت اسيرة الى روما ، مقيدة بسلاسل الذهب كما تذكر المصادر الاوربية . وقال الشاعر العربي ، يذكر الموت وقوته على التصدي لهذه الملكة العربية القوية ، ويورد جانبا من حصونها التي شيدتها كخطوط دفاع عسكرية ضد الروم المحتلين ، قال المخبل السعدي :

طلب ابنة الزبا وقد جعلت له
دوراً ومسربة لها انفاقُ

حملت له أجلاً ولا يخشونه
من أهل دومة رسلة مِعْنَاقُ

حتى تفرعها بأبيض صارمٍ
عضب يلوح كأنه مخراقُ

وقد اورد الشاعر عدي بن زيد العبادي جانباً من دهائها في قصيدة له مثبتة في ديوانه . واذا كانت ذاكرة الرواة لا تعي شيئا من مفاخر هذا المجد العريق الا ببعض الشعر الذي اشرنا اليه ، وقد ورد في معرض عِظَةٍ او ارشاد تجاه الموت والفناء الابدي المتسلط على البشر ، مشيرا الى عظمة هذه السيدة العربية التي قامت بأقدم محاولة تحرير عربية يحتفظ بها التاريخ ، فانّ هذه الذاكرة لم تعد تعي شيئا لتخبرنا عن محاولة

« الملكة ماوية » التي لا تقل عن الزباء رغبة في تحرير الاجزاء الغربية التي بايدي الروم . واذا صدق تفسير (موسل) لما ذكره المؤرخ (اميانوس) وايراده كلمة أسانيته Assanitae من انها تعني الغساسنة ، فان الملكة ماوية تعتبر من اوائل الملوك الغساسنة ، وبالاخص ما ذكره المؤرخون من ان الملك الذي كان قبلها عربي ، وانها وليت الحكم بعد وفاة زوجها . وقد كان في ملوك غسان سيدة عظيمة تعرف بمارية ، لعلها هي (ماوية) نفسها وقد حرف الاسم الى (مارية) وذكرها حسان بن ثابت في شعره متشرفا بها وباسمها وبابنائها :

اولاد جفنة حول قبر ابيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

يسقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

واذا لمسنا شيئا من ندرة شعر المعارك المصرية في التخوم الغربية ، فهي ظاهرة كان لها ما وراءها ، اذ جاء شعر التحرير (أو الفتوح

الشرقية) وافرا جـدا ، وجاء شعر (اليرموك)
قليلا اذا قيس بشعر (القادسية) ، وهي ظاهـرة
نتصدى لها بالدرس والتحليل في اثناء الحديث عن
الادب ومعارك العرب المصيرية في الاسلام .

القسم الثاني
أدب المعارك المصيرية في صدر الاسلام

لقد وقعت معركة ذي قار ، والرسول (ص) جديد عهد بدعوته ، فكان النصر العربي فيها دعما قويا للفكر العربي المتمثل بالاسلام الذي يعد صيغة سماوية تبلورت على مدى قرون طويلة ، منذ عهد ابراهيم الخليل عليه السلام . وقد ورد في المصادر أن الرسول بشر رفاقه بهذا النصر قائلا : (هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم) ، وبذلك تكون هذه العبارة المروية في اقدم المظان الادبية أول عبارة في تراث العرب الادبي حول مساهمة الفكر في المعارك المصيرية في المرحلة الجديدة ، كما وضعت المؤشر الحقيقي لطبيعة الدعوة الاسلامية ذات المحتوى الفكري العربي ، والهدف التحرري القومي ، والابعاد الانسانية العميقة الرافضة لكل اشكال الهيمنة والاحتلال، لذلك لقيت الدعوة معاداة شديدة من جانب الشعوبية والصليبية والصهيونية منذ فجر انبثاقها ، لما في طبيعة هذه الاتجاهات من

نوازع عنصرية حاقـدة . ثم جاء التنزيل العـزيز ليؤيد ذلك ، فقد ورد في أدب القـرآن الكريم مـا يشير صراحة الى موقف عربي اسلامي واضح من احتلال الفـرس للارض العربيـة ، وصـراع الامبراطوريات القديمة على هذه المغانم حيث اكدت سورة (الروم) الموقف عندما انتصر الفـرس في احدى المعارك ، وجاءت السورة الكريمة لتنسف الانتصار على الروم بهزيمة قريبة تقع في بضـع سنين ، ووقعت النبوءة . فكان لها أعمق الاثر في الاحداث اللاحقة .

ان هذا المنطلق الجديد للفكر العربي ، وضع أدب المعارك المصرية في دروب التحرير الطويلـة وفق ثلاثة محاور جوهرية : ادب الصراع ضـد الوثنية التي تعني التجزئـة لتكون التوحيديـة الحنيفية بديلا لها وهي هدف العرب الاسمى ، ثم أدب الصراع ضـد الحقـد اليهودي وعدائهـم التقليدي للعرب حيث تفجرت بؤره في (يثرب) ، ثم أدب الصراع التاريخي ضد الاحتـلال الاجنبي المتسلط ويتمثل في الجيوش الغازية من جميـع الاطراف . تلك كانت الصورة المتكاملة لوضـع العرب المصيري كما تجسده نتاجاتهم الدائـرة في قلب المعارك .

أما النقطة الجوهرية الاولى ، فقد جاءت في تسلسل النضال المصيري في اولى المهمات القومية ، كما هي الآن في مقدمة الاهداف ثم يليها الحرية والاشتراكية ، وان كانت الاهداف تمتزج ببعضها في المراحل امتزاجا جدليا لا يمكن فصله أو وضعه في مراحل مؤجلة . وكان الصراع ضد الوثنية ذات الصيغ المتعددة صراعا ضد اشكال التجزئة ، وجهادا في سبيل التوحيد العقائدي الذي يعني في أساسه وحدة دينية واقتصادية وسياسية واجتماعية ، مندمجة اندماجا وجدانيا وماديا معا . حقا كانت قبل الاسلام لقاءات عسكرية ذات محتوى ديني ، لكنها ضمن الاطار التقليدي للتجزئة ، وقد صورت لنا بعض النصوص الموروثة ، كقول احد الشعراء في الاسلام ، وهو الكميت الاسدي ، يصور لقاء قبليا ساهمت فيه الآلهة مساهمة فعلية حيث قال :

وقد آلت قبائل لا تولي
منـاةَ ظهورها متحرّفينا

وقال شاعر في الجاهلية يصف كيف تقدم مسيرتهم الههم (يغوث) ليغزوا مرادا :

فسار بنا يغوث الى مراد
فناجزناهمُ قبل الصباح

ونضرب مثلا آخر من يوم يقـال لـه يوم الزويرين ، يوم كانت تميم تقاتل لتفرض عبـادة إلهها على بعض القبائل ، بينما كانت القبـائل الاخرى تدعو لآلهتها وتعمـل لنصـرها وفرض عبادتها . و (الزوير) إلـه ، ولعل له علاقـة بالزيارة التقديسية لبيـوت الآلهة أو المواضـع المقدسة أو القصور المعظمة ، وهو اله كانت تميم تعظمه ، فنقلته معها الى المعركة تيمنا به واستجلابا للفأل الحسن ، ونقل البكريون إلههم أيضا ، وهو شيخ مسن يقال له : الأصم ، وهي عبادة معروفة لدى بعض القبائل بتقديس المعمرين ، فكانت آلهة اشبه بما نقرأ مثلها في الملاحم الكونية ، العربيـة والاجنبية ، مثل كلكامش وانوما اليش والاليـاذة والاديسة ، فصور ذلك شاعرهم يومئذ حين قال :

كانت تميـم معشـراً ذوي كَرَمْ
غلصمـة من الغلاصـم العظُـمْ
جاءوا بزوريهم وجئنـا بالأصـمّ
شـيخ لنـا من عهـد عاد وإرم
شيخ لنا معاودٌ ضربَ البُهمْ

ولما كان اللقـاء الحاسـم بين التوحيـد والتجزئة ، واندحرت التجزئة المتمثلة في عبـادة (اللات) وانتصر التوحيد المتمثل في عبادة (الله) قال شداد بن عارض الجشمي :

لا تنصروا اللات ان اللـــه مهلكهـا
وكيف نصـــركم من ليس ينتصـرُ
ان التي حُرّقت بالنـار فاشتعلت
ولم تقـاتل لدى احجارها ، هَدَرُ
إن الرســـول متى ينزلْ بساحتكم
يظعنْ ، وليس بها من أهلها بشـر

ووقف شاعر مهزوم من فرسان التجزئـــة ليعترف بهزائمه ازاء الانتصارات التي تسجلها قوى الوحدة ، فقال ، وهو ابو سفيان بن الحارث ، ابن عم النبي :

لعمـــرك اني يوم احمـــل رايتي
لتغلب خيـل اللات خيـــل محمد
لكالمدلـــج الحيران اظلـــم ليلـــه
بعيداً ارجّى ، حين اهدي واهتدي
هـداني هاد غير نفســي وقادني
الى اللـــه من طرّدت كل مطـرّدِ
اصـــدّ وانأى جاهـداً عن محمد
وأُدعـى وان لم انتسب من محمد
همُ ما هـمُ من لم يقـل بهـواهم
وان كان ذا راي يُلَمْ ويُفنّـــدِ
فقـــل لثقيف لا أريـد قتالهـــا
وقل لثقيف تلك ، غيري أوعِـدي

فما كنت في الجيش الذي نال عامراً
وما كان عن جـرم[3] لساني ولا يدي

قبـــائل جاءت مــن بلاد بعيـــدة
نزائــع جاءت مــن سهــام وسرددِ

ولقد تجلت وحدة الفكر العربية في وضـوح التوحيد العقائدي الذي نبذ الفكر الوثني المبني على التجزئة ، وهو ما كانت القبائل تدين به من تعدد في الآلهة ، فبلغت وجهات القبائل ثلاثمائة وستين وجهة وهدفا على عدد الآلهة المنصـــوبة في البيت الحرام وحوله ، فعمل الاســـلام على تنكيســـها وتحطيمها ليذيبها في صيغة واحدة واله واحد أحد هو خالق الاكوان كلها . لذلك كان شعار المسلمين الاول هو : لا اله الا الله ، ثم كان شعارهم في معركة احد هو : أَحَدٌ أحد . بينما كان ابو ســـفيان مثلا ، ينادي باله القبيلة فقط متجاوزا حتى الهة القبائل الحليفة، فيقول :

أُعلُ هُبَلْ .. أُعلُ هُبَلْ

فيأتيه جواب الرسول (ص) بصوت عمر بن الخطاب :

الله أعلى وأجَلّ
الله أعلى وأجَلّ

فيعود ابو سفيان الى القول :

لنا العزى ولا عزّى لكم

لنا العزى ولا عزّى لكم

فيأمر الرسول (ص) ان يجاب :

الله مولانا ولا مولى لكم

الله مولانا ولا مولى لكم

هذا الحوار بطريقته الرجزية ، يعكس بوضوح صيفتين ، صيغة تجزئة وصيغة وحدة . أما الاولى فانطلاقة قبيلة ضيقة تدعو الى نصر اله قريش دون آلهة القبائل ، وكان ذلك اساس الصراع القبلي في بلاد العرب ، وكان يحاربه الاحناف التوحيديون الذين كانوا يومئذ المناضلين الحقيقيين في الساحة العربية ، ويتجلى في عدة لقاءات . ومن ملاحظة المادة الاساسية ، أو الخامات الاولية للاسلام ، نستشف جانبا قوميا للدعوة الاسلامية ، وواقعية الشعار الذي رفعته في وجه الخصوم ، وهو شعار (الوحدة) في كل شيء . الم يكن هدف الصيغة الجديدة التي جاء بها الرسول ، ان يتحرر العرب من واقعهم المفتعل غير الاصيل اولا ، المتمثل في الوثنية ومعطياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ثم التحرر من واقع غيرهم عليهم ثانيا ، المتمثل في احتلال الغير لارضهم ، وفرض الواقع المنتصر ، بما فيه من مظاهر مرفوضة حتى في

داخل الامبراطوريات الغازية نفسها عندئذ يأتي الانطلاق بالرسالة نحو عالم ضائع متخبط ، ليهتدي بها ، فكانت الرسالة للعرب قدرا ، وللعالم اختيارا . وجعل الاسلام (الوحدة) اساسا لميدانه ، فالله عز وجل ، واحد" أحد" ، فنفى الوثنية لانها تجزئة وتعدد . واللغة العربية كتابة" وتحدثاً ، واحدة" موحدة" لا دخيل فيها ولا اختلاف في تراكيبها ، والعرب امة" واحدة" ، فنفى كل مظاهر العصبية والقبلية والفردية في اكثر من آية واحدة . وارض العرب واحدة لا يساوم عليها ولا يتهاون في استردادها ان اغتصبت ولا يقعد عن القتال في سبيل تحريرها ، فكان الجهاد وحروب التحرير والفتوح الاسلامية فرضا من فروض الاسلام .

ان هذا المظهر الوحدوي في الفكر الاسلامي ، سيشاهد عيانا في سيرة الرسول منذ نعومة اظفاره ، وسيعكس طوابعه على الشعر فيما بعد، فكان الشعر يسير حثيثا نحو تحقيق هدف التوحيد ، فكان ابرز موقف له هو صد"ه' لتيار القبائل المفعم بالروح العصبية ، وكان هذا التيار قد اخذ يتدفق على يثرب (المدينة) مستخدما اسلوب التأثير الادبي لكي يتفوق على تيار الوحدة القومية والتوحيد العقائدي كوسيلة للتمويه بالمقولة الزائفة عن ضعف الشعر لدى المسلمين ، وبالاخص كون قائد المسيرة

ليس بشاعر ، الا ان الشعراء ومن ورائهم قوة الدعوة التوحيدية ومتانة الفكرة الرافضة للقبلية والعنصرية والداعية الى وحدة العرب ، وقفوا في وجه تيار القبائل ، فسجل لنا التاريخ عدة احداث من هذا الامتحان العسير ، لعل ابرزها ما قامت به بنو تميم حين اقبلت بوفد عظيم من شعرائها وخطبائها واقتحمت المدينة بهم لتفاجيء الرسول دون ان يؤذن لهم بذلك ، فجعلوا يصيحون من وراء الحجرات ان اخرج الينا يا محمد . فآذاه صياحهم فخرج اليهم ، فقالوا : جئناك لنفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا . قال : نعم ، اذنت لخطيبكم فليقل . فقام اليه عطارد بن حاجب ، فافتخر بقبيلته دون العرب ، فندب الرسول له ثابت بن قيس بن شماس ، خطيب الرسول ، فأمره ان يجيبه ، فحمد الله واثنى عليه ، وافتخر بالرسول وبالعرب كلهم . ثم قالوا : يا محمد ائذن لشاعرنا . فقال : نعم . فقام الزبرقان بن بدر ، فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا
عند النهاب وفضل العز يتبعُ

وكم قسرنا من الاحياء كلهم
عنو النهاب وفضل العز يتبعُ

فلا ترانا الى حي نفاخرهم
إلاّ استقادوا وكاد الرأس يُقتطعُ

إنـا أبينـا ولـن يأبـى لنـا أحـد
إنـا كذلـك عنـد الفخـر نرتفـع
وكان حسـان بن ثابت غائبـا ، فبعث اليه رسول الله ، فأمره ان يجيبه ، فقال :

ان الـذوائب مـن فهـرٍ واخوتهـم
قـد بيّنـوا سـنةً للنـاس تتبـع
يرضـى بها كـل مـن كانت سريرتـه
تقـوى الإلـه وكـل الخـير يصـطنع
قـوم اذا حاربـوا ضـرّوا عدوَّهـم
او حاولوا النفـع في اشياعهـم نفعـوا
اكـرم بقـومٍ رسـول اللـه شيعتهـم
اذا تفـرّقت الاهـواء والشـيع

فلما فرغ حسـان من قصـيدته ، وهي في ابيات ، قال الاقرع بن حابس : « وابي ان هـذا الرجل لمؤتـى له . لخطيبه اخطب من خطيبنـا ، ولشاعره اشعر من شاعرنا ، واصواتهم اعلى من اصواتنا » ويلاحظ في هذه الرواية التي اوجزنا وقائعهـا ، ان شـعر التميميين فخـر بأنفسـهم وقبيلتهم ، بينما لم يفخر حسان بن ثابت بأهلـه وعصبيته ، بل اتخذ الفهريين ، اجداد الرسول ، رمزا لمديح الفكرة الاسلامية ، لان اجداد الرسول ، ابتداءً من عبدالمطلب وهاشـم وعبدمناف وقصيّ الى فهر ، كانوا يدينون بالحنيفية ، دين ابراهيـم

الخليل ، دين التوحيد ضد التجزئة الوثنية والتفرق العقائدي . فكان فخر حسان منصبا على الفكر وعلى العقيدة وذلك بذكره سُنَّة الاسلام المتبعة . مع ان حسان بن ثابت ، عندما بعث الرسول في طلبه ، سوّلت له نفسه ان يفخر بقومه الخزرجيين قال حسان : فلما جاءني رسوله [أي رسول رسولُ اللهِ (ص)] فأخبرني انه انما دعاني لاجيب شاعر بني تَميم ، خرجت وانا اقول :

منعنا رسول الله اذ حَلّ وسطنا
على كل باغٍ من معد وراغمِ
منعناه لما حلّ بين بيوتنا
بأسيافنا من كل عادٍ وظالم
ببيتٍ جريرٍ عزّهُ وثراؤه
بجابية الجولان وسط الاعاجم
هل المجد الا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظائم

لكن حسانا اعرض عن هذا الفخر القبلي ، مع ما فيه من مدح للرسول ، وسلك طريق الالتزام العربي الجديد وفق الصيغة الاسلامية ، فاتخذ من الفهريين رمزا للعرب ووحدتهم ودعوتهم الى توحيد القيادة ، واتخاذ هدف واحد عند التوجه في الصلاة والاذان والكعبة . ان شعر الوفود يمثل الجانب القبلي الفردي من الشعر العربي بالرغم من جمال صياغته وفنيتهِ العالية ، الا ان ردود

المسلمين عليه تعد تصحيحا لمسيرته وارغاما له
ليتزم في معطياته ، ويمثل في جادة الصواب وطريق
الوحدة ، فكان النصر لشعراء الدعوة العربية
الموحدة ، والهزيمة لدعاة القبلية والعنصرية
والتجزئة . ولا يخفى ، ان ثورة الرسول التوحيدية
دينا ، والوحدوية جنسا ، كان الهدف من ورائها
ان تنضم القبائل كلها تحت لواء الامة العربية
باعتبارها جنسا واحدا ، الا ان بعض الشعراء كانوا
يمثلون قمة التذبذب العقائدي بين التجزئة القبلية
والوحدة القومية . ولم تتحقق للعرب هذه
التوحيدية الدينية بالغاء التجزئة الوثنية ، وهذه
الوحدة السياسية بالغاء التكتلات القبلية ، بلمسة
سحرية ، كما يتوهم البعض ، وانما ظلت بدوات
منها في اشعارهم وتصرفاتهم حتى كانت الانتكاسة
الكبرى في ايام الردة ، فانفرط عقد الوحدة مرة
اخرى ، فعاد على ماكان عليه الاسلام بل اشد
سوءا ، وعادت القبائل الى عزلتها الفردية مسترجعة
ذكريات الغزو والسلب ومظاهر التمزق الوثني ،
فتوقفت حركة التحرير ، ووثب العدو المتربص
وراء الحدود من روم وفرس وحبش على اجزاء من
الوطن فاحتلته ، والبت اطراف اخرى على التمرد
في داخل الوطن . ولولا ان الرسول (ص) كان قد
احكم بناء القلب ، وخلايا التنظيم في عاصمة وطن

الوحدة ، لانتهى الامر الى غير رجعة ، لكنه ببعض المعارك المصيرية التي خاضها ضد حصون الوثنية في (بدر) و (احد) و (الرجيع) و (الخندق) و (الحديبية) و (مؤتة) ويوم (فتح مكة) و (تبوك) استطاع ان يترك العرب اساسا لا يتأثر بالاطراف التي لم تحرر بعد بشكل تام . فكان للادب دور متميز بفاعليته في الاحداث المذكورة . وقد سبق أن استشهدنا بالحوار الرجزي في يوم أحد بين قوتين متصارعتين ، ولو أحصينا عشرات القصائد والمقطوعات الشعرية والامثال والاقوال والخطب التي تشكل أدب المعركة المصيرية بين الوحدة وبين التجزئة ، لخرجنا بمحصلة جديدة في معرفة طبيعة هذا الادب الذي حسم المعركة لصالح (التوحيد) منذ أول لحظة حتى كان اللقاء اللاحق في يوم أحد . ويتوزع شعر القوتين بين قصائد ومقطعات قيل بعضها في اوان الحرب وشدة أوارها ، وقيل البعض الآخر بعد ذلك ، اما في صورة مهاجاة أو منافرات على الطريقة الجاهلية ، واما في صورة مراث انطلق بها الطرفان يؤبنان قتلى بدر ، لكن اكثر هذه المراثي وثنية ، لأن النصر كان فيها للتوحيد ، ودارت الدائرة على الوثنيين فتركوا في (القليب) ، (قليب بدر) وهو بئر ، صرعى كثيرة ، بعضهم

من رؤوس قريش وساداتهم . والملاحظ في هذا الشعر أن ما نطق به الوثنيون يدور في أطر عقائدية ضيقة كالفخر القبلي أو المديح الجاهلي أو الرثاء التقليدي ، وبالاخص رثاء النسوة لآبائهن او اخوتهن او أزواجهن . وقد اوضح لنا الحوار الذي جرى بين رسول الله وبين ابي سفيان في أول يوم (أحد) صورة صادقة لطبيعة الفكر الذي يبشر به الطرفان . وسأجتزيء بعض اشعار (بدر) موضحا الفرق بين الاتجاهين المتضادين ، فمن ذلك قول حسان بن ثابت :

فما نخشى بحول الله قوما
وأن كثروا وأجمعت الزحوفُ
اذا ما البّوا جمعا علينا
كفانا حدَّهم ربٌ رؤوفُ
سمونا يوم بدرٍ بالعوالي
سراعاً ما تضعضعنا الحتوفٌ
فلم تر عصبة في الناس أنكى
لمن عادوا اذا لقحتْ كَشُوفُ
ولكنّا توكّلنا وقلنا
مآثرُنا ومعقلُنا السيوفُ
لقيناهم بها لما سَمَونا
ونحن عصابةٌ وهمُ الوفُ

بهذا الوضوح واللفظة المؤمنة يعبر حسان عن معتقده ونصره ، بينما يعبر شداد بن الاسود الليثي عن مُثُلٍ لم تعد بذات فاعلية في مجتمع ينشد الخلاص والتحرر والتوحيد ، وذلك في قوله ذاكرا زوجته في يوم بدر :

تحيي بالسلامة أمُّ بكر
وهل لي بعد قومي من سلامِ
فماذا بالقَليب قَليب بدرٍ
من القينات والشَربِ الكرامِ
وماذا بالقليب قليب بدر
من الشيزى تكلّلُ بالسنامِ
وكم لك بالطوىّ طوىّ بدرٍ
من الحومات والنعم المسامِ
وكم لك بالطوىّ طوىّ بدرٍ
من الغايات والدُسع العظامِ
وأصحاب الكريم أبي عليّ
اخي الكأس الكريمة والنُدامِ
وانك لو رايت ابا عقيل
واصحاب الثنيّة من نَعَامِ
اذاً لظللتَ من وجدٍ عليهم
كأم السَّقبِ جائلة المرامِ
يخبرنا الرسول لسوف نحيا
وكيف حياةُ اصداءٍ وهامِ

ولا حاجة بنا للتعليق على معطيات الابيات ، لكنني احب ان اشير الى البيت الاخير منها ، حيث انكر الشاعر فكرة العودة الى الحياة بعد الموت مرة ثانية ، و فكرة البعث والنشور ، وقد كان الشاعر قد اسلم ثم ارتد قبيل معركة بدر ، لذا فهو ملمّ ببعض اطراف الفكر الجديد ، فذكره في شعره منكرا له . ومثل هذا الاتجاه قول عمرو بن العاصي في يوم أحد :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا
مع الصبح من رَضْوَى الحبيكُ المنطّقُ

تمنّتْ بنو النجار جهلاً لقاءَنا
لدى جنبِ سَلْعٍ والامانيّ تصدقُ

فما راعهم بالشرّ الا فَجاءَةً
كراديسُ خيلٍ في الأزقة تمرقُ

ارادوا لكيما يستبيحوا قبابنا
ودون القباب اليوم ضربٌ محرّق

وكانت قباباً أو'منَتْ قبل ما ترى
اذا رامهاَ قوم أبيحوا واُحنقوا

كأن رؤوس الخزرجيين غدوةً
لدى جنب سلعٍ حنظلٌ متفلّق

لكننا حين ننصت لصوت كعب بن مالك الانصاري نجد التوجه يختلف :

أبلغ قريشاً وخير القول أصدقه
والصدق عند ذوي الالباب مقبولُ
إنا قتلنا بقتلانا سراتكم
أهلَ اللواءِ ففيما يكثر القيل
ويوم بدر لقيناكم ، لنا مَددَ"
فيه مع النصر ميكال وجبريلُ
ان تقتلونا فدين الحق فطرتنا
والقتلُ في الحق عند الله تفضيل
وان تروا أمرنا في رأيكم سَفَهاً
فرأىُ من خالف الاسلامَ تضليلُ

ولا يختلف الامر فيما يخص الرثاء لدى قوى التجزئة . فقد طالعتنا قصيدة الاسود بن شداد الليثي قبل قليل بحشد من مظاهر الترف والدعة والسرف ، والفاظ الخمرة والغناء والعبث في تصوير حالة الحرب ، كذلك تترد هذه المظاهر الطبقية والالفاظ المنافية لطبيعة الشاعر المجاهد والعقائدي عند رثاء رفيقه. ومما يلفت نظر الباحث في اشعار بدر وأحد ، ان الرثاء فيها متناوب ، حيث يكثر رثاء الوثنيين لقتلاهم في يوم بدر ، ويكثر رثاء التوحيدين لقتلاهم في يوم (أحد) . ولقد استأثر استشهاد حمزة بن عبدالمطلب عم النبي بقسط وافر من حصة الرثاء ، ولكي تتضح صورة الرثاء بمنظورها الجديد في الاسلام نسوق

مثلا لها ، حيث رثى حسان بن ثابت ، خُبيب بن عدي شهيد يوم (الرجيع) :

صلى الإله على الذين تتابعوا
يوم الرجيع فأُكرموا وأُثيبوا
رأس السرية مرثد وأميرُهم
وابن البكير إمامُهم وخُبيبُ
وابنٌ لطارقَ وابنُ دثنة منهم
وافاهُ ثَمَّ حِمامُهُ المكتوبُ
والعاصمُ المقتولُ عند رجيعهم
كسبَ المعالي إنه لكسوب
منعَ المقادةَ أن ينالوا ظهرَهُ
حتى يجالدُ إنّهُ لنجيب

الادب ومعاركه ضد العنصرية الصهيونية في زمن الرسول :

ان الادب الجديد الذي طرحته كتائب المعركة المصيرية بين التجزئة والتوحيد ، لتصل بنا عفويا فتوصلنا بالمحور الثاني من ادب المعارك المصيرية في صدر الاسلام ، وهو الوضع المتفجر بين العرب الطالعين بألوية الجهاد العقائدي لوضع حد لجميع مساوىء الحالة المحزنة التي صارت اليها الامة العربية ، وبين اليهود الاسرائيليين الذين انطووا على الحقد القاتل للعرب ، يترصدون الفرصة المناسبة

عند قوتهم وضعف العرب لينقضوا عليهم . فلما بعث الرسول (ص) عادت الى اذهان اليهود ذكريات الماضي السحيق ، وجهاد (موسى) و (عيسى) عليهما السلام في خلق امة واحدة موحدة ، ليس فيها اضطهاد واحتكار وتسلط ، وهو أمر ينافي النفسية التي جبلت عليها (بنت صهيون) التي سكبت دمها العنصري في هذه الطغمة الباغية ، فكان اليهود يتحينون الفرص للايقاع بالرسول (ص) كما اوقعوا بموسى وعيسى قبله ، وانهاء الواقع الثوري الجديد للعرب ، وهو واقع ينذر مصالحهم المالية الاحتكارية بالفناء ، فجرت منهم محاولات اولية في تفتيت هذه الفكرة المتبلورة عبر آلاف السنين ، فحصلت لقاءات فكرية بينهم وبين الرسول (ص) مذكورة في الكتب ، وتعكس كتب الادب جانبا منها ، ضمت نقاشا عميقا في طائفة من القضايا الحيوية يومئذ ، كان قصد اليهود الاساسي منها في محاولة حرف الفكر العربي الجديد المتمثل في الصيغة الاسلامية ، والعمل على جر المبادىء الجديدة الموحاة الى الرسول (ص) من السماء الى صيغ توراتية ، لتكون اشبه بالمساومة الفكرية ، فكان الرفض القاطع ، ثم فضح محاولاتهم وتسفيه ارائهم ، وابراز الزيف في معتقداتهم وكتبهم التي لم تعد مقدسة ولا منزلة من السماء بعد أن

مسخوا كل الشرائع والمبادىء التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام . فكان هذا الموقف من اكبر المواقف المصيرية التي ساهم فيها الادب بقسط وافر . ولا اريد ان أتطرق الى القضايا الفقهية والتشريعية والعقائدية الصرفة ، وانما سأكتفي بالجانب الادبي ، حيث نشب الصراع واحتدم حاميا على صعيد الشعر . ففي يوم بدر ، وبعد انتهاء المعركة بعث الرسول بزيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة الى المدينة يعلنان للناس اسماء من استشهد من المسلمين ومن قتل من المشركين . فقال كعب بن الاشرف وكان شاعرا من طي وكانت أمه يهودية من بني النضير : « أحق هذا ؟! أترون ان محمدا قتل جميع هؤلاء الذين يسميهم لنا هذان الرجلان ــ يعني زيدا وابن رواحة ــ فهؤلاء اشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم ، لبطن الارض خير من ظهرها » فلما تيقن كعب الخبر ، خرج حتى قدم مكة ، فأنزلوه واكرموه ، وجعل يحرض على رسول الله (ص) وينشد الاشعار ، ويبكي اصحاب القليب من قريش ، الذين اصيبوا ببدر :

طحنَتْ رحى بدرٍ لمهلك أهلهِ
ولمثلَ بدر تستهلُ وتدمعُ

قتلتْ سراةُ الناس حول حياضهم
لا تبعدوا إن الملوك تصرّع
كم قد اصيب به من أبيض ماجد
ذي بهجة يأوي اليه الضيّع
طلق اليدين اذا الكواكب أخلفتْ
حمال اثقال يسود ويربع
ويقودُ اقوام أَسَرْ بسخطهم
ان ابن الاشرف ظل كعباً يجزع
صدقوا فليت الارض ساعة قُتّلوا
ظلت تسوخ بارضها وتُصدّع
نبئتُ ان بني المغيرة كلهم
خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدّعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبِّه
ما نال مثل المهلكين وتبّعُ
نبئت أن الحارث بن هشامهم
في الناس يبني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما
يحمي على الحب الكريم ، الأروع

فرد عليهم حسان بن ثابت :
أبكى لكعبٍ ثم عُلَّ بعبرةٍ
منه وعاش مجدّعاً لا يسمعُ ؟
ولقد رايت ببطن بدر منهم
قتلى تسحّ لها العيون وتدمع

فابكي فقد أبكيت عبداً راضعاً
شبه الكليب الى الكليبة يتبع
ولقد شفى الرحمن منا سيداً
وأهان قوماً قاتلوه وصُرّعوا
ونجا وأفلت منهم مَنْ قلبُه
شعف يظل لخوفه يتصدّع

ثم رجع كعب بن الاشرف الى المدينة ، فشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم ، فالتقى فرسان من المسلمين به وبجماعته ، والتحموا في قتال أسفر عن مقتل كعب وجرح أحد الفرسان ، فلما اصبح الصباح خافت يهود من هذه الوقعة ، فقال كعب بن مالك :

فغودر منهم كعب صريعاً
فذلت بعد مصرعه النضيرُ
على الكفين ثم وقد علته
بأيدينا مشهّرة ذُكورُ

وقال حسان بن ثابت :

للهِ درّ عصابة لاقيتهم
يا بن الحقيق وانت يا بن الاشرفِ
يسرون بالبيض الخفاف اليكم
مرحاً كأُسْدٍ في عريف مغرف

حتـــى اتوكـــم في محـــل بلادكـــم
فسقوكـــم حتفـــاً ببيض ذُفَّـف

مستضرين لنصـــر ديـــن نبيهـــم
مســـتصغرين لكـــل أمـــر مجحف

وقد كان القضاء على كعب بن الاشرف قبيل يوم احد . وقد اعطت هذه الوقعة للعرب مؤشرا خطيراً فيما يخص مصـــيرهم القومـــي والسياســـي والعقائدي ، فلم يكن كعب بن الاشرف يشكل بؤرة التآمر وحده ، بل ظهرت بؤر كثيرة ، منها بـؤرة المنافقين وبعض رجال القبائل السائرين بين القوتين المتصارعتين باكثر من ولاء ، فهم مع طواغيت مكة من جهة ومع احبار يهود من جهة ثانية ، ثم مغازلة المسلمين من طرف ثالث . وكـــان هناك ما يعرف بالاحزاب الذين يؤْذنُ وضعهم بانفجار قريب ولقاء حاسم مع المسلمين ، لكن بؤرة التحالفات [الوثنية الاسرائيلية] كانت اخطر هذه الظواهر ، لذلك لم يفد مقتل كعب بن الاشرف ، حليف اخواله اليهود كثيرا ، وقد برهنت ايام « أحد » على ذلك ، وجاءت وقعة الخندق فزادت في البرهان ، فظهرت الحاجة الى التخلص من راس كبير آخر ، كان يخطط مع كعب بن الاشرف ويعملان معا ضد طموحات العرب المشروعة ، لذلك رأت قيادة العرب يومئذ ، تجاه هذا التجني والاعتداء الآثـــم ، أن تســـكت هـــذه

الاصوات المجرمة ، فندبت لها خمسة من الرجال قاموا بما يشبه العملية التي قام بها رفاقهم في بتر دابر العدوان المتسلط عليهم من كعب بن الاشرف، فنهض الفدائيون الخمسة بعمليتهم بكل بطولة ، وصفتها الكتب المختصة ، فقال حسان بن ثابت في قتل سلام بن ابي الحقيق وقبله كعب بن الاشرف :

للّه درِ عصابة لاقيتهم
يا بن الحقيق وانت يا بن الاشرف

وهي ابيات تقدم الاستشهاد بها . وقال عبدالله بن رواحة :

لعمري لقد حكّت رحى الحرب بعدما
أطارت لؤياً قبلُ شرقاً ومغربا
بقية آل الكاهنين وعزّها
فعاد ذليلاً بعدما كان أغلبا
فطاح سلام وابن سعية عنوة
وقِيدَ ذليلاً للمنايا ابن أخطبا
واجلب يبغي العز والذل يبتغي
خلاف يديه ما جنى حين اجلبا
كتاركِ سهل الارض والحَزْنِ همه
وقد كان ذا ، في الناس اكدى واصعبا
فبعدا وسحقاً للنضير ومثلها
ان اعقب فتح" أو إن اللّه أعقبا

وكان الواقع العربي يجتاز أصعب ظروفه في تلك الأيام ، فلم تكن قوى الوحدة والتوحيد الا بضعة ألوف تواجه خطراً يهودياً من الداخل ومن الاطراف ، وتحالف القبائل في الانحاء القريبة والبعيدة ، وحشود الوثنية بزعامة مكة ومن دخل في عهودهم ومواثيقهم من (الحُمس والحِلّة) على حد سواء ، فكان الموقف يستدعي الحذر الى اقصى درجاته ، ويستوجب الحكمة الى أبعد حدودها . ومع ان الضربات جاءت موفقة وسديدة الا ما يعكرها في (أحد) لكن الدلائل اشارت بقوة الى وجوب التصدي للمحاولات اليهودية في الساحة العربية نفسها قبل أن يتفاقم الامر ، لا سيما وان نتائج (أحد) تعلّق أجزاء كبيرة منها في ذمة المواقف الاسرائيلية الخبيثة . لذلك وجد الرسول القائد انه بعد حادثة (بئر مؤونة) المحزنة ، أن غدر اليهود لم يعد امرا يسكت عليه ويترك دون عقاب أو بتر لاطرافه .

فقد كانت بنو عامر قد غدرت بالصحابة العلماء الذين ذهبوا لتعليمهم ، فصلبتهم جزاء ما يقدمونه لابنائها من تنوير عقولهم ، وكان عامر بن الطفيل هو الذي فعل ذلك ، فجعل حسان بن ثابت يثير عليه عمه أبا براء عامر بن مالك (ملاعب الاسنة) العهد الذي بينه وبين المسلمين ، ولان

عملية عامر بن الطفيل تعد انتقاصا من قدر (ملاعب الاسنة) :

بنـي أم البنـين الـم ْ يرعكـم ْ
وانتـم مـن ذوائـب أهـل نجـدِ

تهكـم ُ عامـرٍ بأبـي بـراءٍ
ليخفـره ، وما خطـأ" كعمـدِ

الا أبلـغ ربيعـة ذا المسـاعي
فما أحدثت في الحـدثان بعـدي

أبـوك ابو الحـروب ابـو بـراء
وخالك ماجـد" حكَم ُ بن سعـدِ

لكن أبا براء لم يصنع شيئا اكثر من ان حمل على عامر بن الطفيل فطعنه فأخطأ مقتله ، ثم ظهر أن لبني النضير ضلعا في القضية ، فخرج اليهم رسول الله (ص) ، فلما وقف يكلمهم ، صعد يهودي الى سطح البيت الذي وقف الرسول الى جنب جداره ليلقي بصخرة ، قصـد ها أن تصيب الرسـول ، فأحبط الله غدرهم ، وحاصرهم الرسـول حتى جلاهم الى أرض بعيدة ، فقال في ذلك ابن لُقيـم العبسي :

أهلي فـداء لامـرىء غير هالـكٍ
أحـلّ اليهـود بالحسـيّ المزنّم

يقيلون في جمر الغضـــاة وبُدّلـوا
(اهيضب عودي) بالودىّ المكمّـم
فان يـك ظنـي صـادقاً بمحمـدٍ
تروا خيلـه بين الصـلا ويرمرم
يؤمّ بها عمـرو بن بهنـة انهـم
عـدوّ وما حيّ صـديق كمجـرم
عليهن ابطـال مساعير في الوغـى
يهـزون اطـراف الوشيج المقـوّم
وكل رقيـق الشفرتين مهنّـدٍ
توورثن من أزمـان عـادٍ وجرهـم
فمن مبلـغ عني قريشـاً رسالـةً
فهل بعدهم في المجـد من متكرّمِ
فـانّ اخـاكم فاعلمن محمـداً
تليـد الندى بين الحجون وزمزم
فدينوا لـه بالحق تجسُمْ امورکم
وتسموا من الدنيا الى كل معظـم
رسـول من الرحمن يتلو كتابـه
فلمـا انـارَ الحـقُ لم يتلعثم
ارى أمـره يـزداد في كـل موطـنٍ
علـوّاً لأمـر حمَّـه الله مُحْكَـمِ

ولما وقف الامام علي بـن ابـي طالب (رض) ينشد العرب قصيدته في ادراك ثأرهم من كعب بن الاشرف وسلام بن ابي الحقيق واجلاء بني النضير

لخيانتهم ، ويقال ان القصيدة لاحد المسلمين ، وقف الشاعر سماك اليهودي منذرا العرب بحرب لئيمة فقال :

فان تفخروا فهو فخر لكم
بمقتل كعب أبي الاشرف
غداة غدوتم على حتفه
ولم يأت غدراً ولم يخلفِ
فعلّ الليالي وصرف الدهو
ر يديل من العادل المنصفِ
بقتل النضير واحلافها
وعقر النخيل ولم تُقطف
فان لا أمت نأتكم بالقنا
وكل حسام معاً مرهف
بكف كميٍّ به يحتمي
متى يلقَ قرناً له يُتلفِ
مع القوم صخر واشياعه
اذا غاور القوم لم يضعف
كليث بترجٍ حمى غيلةً
أخي غايةٍ هاصرٍ أجوف

ويلاحظ في القصيدة انعدام الذمة اليهودية في اسلوبهم الاعلامي الصهيوني الى اليوم ، حيث يذكر الشاعر زاعما ان العرب قطعوا اثمار النخل قبل

أوانها ويزيد في كذبه انهم عقروا النخيل ، ليضع في وهم الآخرين انهم قوم لا يرعون للحروب ذمة ، واليهود معروفون بعنصريتهم وحقدهم في محاربة الامم بأقذر الاساليب . وعلى خلاف ما يرجف الشاعر اليهودي ، فقد كان الرسول (ص) أوصى المجموعة الفدائية التي خرجت لقتال كعب بن الاشرف وسلام بن ابي الحقيق ومحاصرة بني النضير الا يقتلوا طفلا ولا امرأة ولا يؤذوا شجرة . واذا عدنا الى رواية قتل سلام بن ابي الحقيق في سيرة ابن هشام وجدناها تقول : « وخرج اليه خمسة نفرهم عبدالله بن عتيك ومسعود بن سنان وعبدالله بن انيس والحارث بن ربعي وخزاعي بن اسود ، وجعل النبي من عبدالله قائدا لهذه المجموعة الفدائية ونهاهم عن ان يقتلوا وليدا او امرأة » فلما وصلوا الى حصنه الحصين في خيبر ، وكان في علّية يرتقى اليها بسلم يصعد عليه الى أعلى الغرف . فخرجت اليهم امرأته ، فقالت : من انتم ؟ قالوا : ناس من العرب نلتمس الميرة . قالت : ذاكم صاحبكم ، فادخلوا عليه . قال : فلما دخلنا عليه ، اغلقنا الباب علينا وعليها لتكون معنا في الحجرة لكي لا تخبر بنا فصاحت امرأته ونوهت بنا ، فابتدرناه باسيافنا ، فكنا نهتدي اليه في سواد الليل ببياض اهابه . ولما صاحت بنا امرأته ، جعل الرجل منا

يرفع عليها سيفه ، ثم يذكر نهيّ رسول الله (ص) فيكفّ يده ، ولولا ذلك لفرغنا منه بليل . واذن فقد أبقت شهامة العرب على المرأة ، وكادت العملية ان تخفق بسبب الابقاء عليها ، بل ان صياحها جعل يهود خيبر يخرجون والمشاعل في ايديهم يطلبون المجموعة في الظلام الى ان يئسوا ، فعادوا الى صاحبهم فوجدوه قد فاظ (أي هلك) وامراته تدني المصباح من وجهه .

ولما انتهت (الخندق) وظهرت الخيانة واضحة للعيان ، لم يكن من انهاء امر قريظة بد ، بعد الذي فعلته في نقض العهود ومساندة الوثنية ، وتعريض أمن العرب المسلمين لافدح المخاطر . فسار اليهم الرسول وقد أعطى الراية للامام على (رض) فكانت ، كما وصفها يهودي قرظي قبل ان تقطع رقبته : « كتابا وقدرا وملحمة » ثم حبس فضربت عنقه ، فخاطبه جبل بن جوال الثعلبي ، وكان ذبيانيا غطفانيا يهوديا ، أسلم وصارت له صحبة ، رأى القرظي وهو يحيى بن اخطب وعليه حلّة فُقّاحية (تضرب الى الحمرة) وكان من اكثر الناس عداء للعرب ، يقول ذلك ، قال جوال :

لعمرك ما لام ابن اخطب نفسه
ولكنه مَنْ يخذل الله يُخذلِ

لجاهد حتى ابلغ النفس عذرها
وقلقل يبغي العز كل مقلقل

وقال حسان بن ثابت في هذا النصر العربي ضد اعتداءات العنصرية اليهودية وخرقهم لعهودهم :

لقد لقيت قُريظةُ ماساآها
وحلَّ بحصنها ذُلٌّ ذليلُ
وسعد كان انذرهم بنصح
بأن الهكم ربٌّ جليلُ
فما برحوا بنقض العهد حتى
فلاهم في بلادهم الرسول
احاط بحصنهم منا صفوف
له من حَرِّ وقعتهم صليلُ

وقال جبل بن جوال الثعلبي ـ قبل اسلامه وصحبته ـ يبكي قريظة والنضير وقينقاع والمجد اليهودي الضائع منذ العهود الغابرة ، وهي تعبر بعمق عن روح العنصرية الاسرائيلية ، والحقد الاسود الذي يكنونه للعرب عامة ولسكان يثرب من الأوس والخزرج بخاصة ، ويتذكر مصرع سلام بن ابي الحقيق :

الا يا سعد سعد بني معاذ
لما لقيتْ قريظةُ والنضيرُ

لعمرك ان سعد بني معاذ
غداة تحمّلوا لهو الصبورُ
فأما الخزرجي أبو حباب
فقال لقينقاعٍ لا تسيروا
وبُدّلت الموالي من حضير
اُسيداً والدوائر قد تدور
وأقفرت البويرة من سلام
وسعية وابن أخطب فهي بورُ
وقد كانوا ببلدتهم ثقالاً
كما ثقلت بحيطان الصخور
فان يهلك ابو حكم سلام
فلا رثّ السلاح ولا دثور
وكل الكاهنين وكان فيهم
مع اللين الخضارمة الصقور
وجدنا المجد قد ثبتوا عليه
بمجد لا تغيبه البدور
اقيموا يا سراة الاوس فيها
كأنكم من المخزاة عور
تركتم قدركم لا شيء فيه
وقدرُ القومِ حاميةٌ تفور

وكان هذا آخر العهد بالمعاقل اليهودية ، وكان ضربها ودكّ حصونها قد اعطى ثماره العاجلة لنضال العرب التوحيدي عقيدة والوحدوي جنسا وانتماءا

وشعورا ، حيث بدأت حركة التحرير تلهب الارض العربية في كل موضع واتجاه ، لان العامل المعوّق الكبير كان اليهود العنصريين كما هي الصهيونية اليوم ، وكانت هذه الطغمة قد تحالفت مع وثنيي مكة ضد الوحدة العربية ونضالها المقدس . وقد نعى حسان بن ثابت لليهودية مصيرها الذي رسمته لنفسها بسوء جوارها وبتكرر عدوانها وخياناتها ، وانذر الوثنيين بالمصير نفسه :

لقد لقيت قريظة ما ساآها
وما وجدت لذلٍ من نصير
اصابهم بلاء كان فيه
سوى ما قد أصاب بنو النضير
غداة اتاهم يهوي اليهم
رسول الله كالقمر المنير
له خيل مجنّبة تعادى
بفرسان عليها كالصقور
تركناهم وما ظفروا بشيء
دماؤهم عليها كالغدير
فهم صرعى تحوم الطير فيهم
كذاك يُدان ذو العَنَد الفجور
فأنذر مثلها نصحاً قريشاً
من الرحمن إن قبلت نذيري

ولست ابتغي الاستطراد وراء جميع الاشعار التي قيلت في هذا المحور الذي كانت نهايته قد سجلت النهاية المبكرة لحصون الوثنية التي كانت تجد قوتها ودعمها لدى دهاقين المال اليهود ودسائسهم ومكرهم وخديعتهم مع العرب الموحدين . كما لا ابتغي عرض كل جوانب الادب التي قيلت في هذا المجال لانها تفوق الحصر وتستغرق الصفحات لما احتفلت عليه من قصص وامثال وخطب واشعار وكذلك الادب المقاوم الذي انطلقت به الحناجر العربية المجاهدة ضد التمزق الوثني ، لانه ادب غزير جم يستوجب الدراسة والاستقصاء . لذلك وجدت أن انتقل الى المحور الثالث في أدب العرب ومعاركهم المصيرية ، وهي معارك المجاهدين ضد محتلي ارضهم العربية . وهذا القسم يربطنا بالعملية التحريرية الكبيرة التي بدأ بها الآباء منذ عصر ما قبل الاسلام ، وانتهى بيوم ذي قار .

الادب يتصدى من جديد لانتكاسة الوحدة

وكان لنا في المحور الثالث من هذه الدراسة عودة الى انتكاسة الوحدة التي حققها العرب تحت القيادة الثورية الجديدة ، وفق منظور الصيغة العربية الاسلامية ، وهي انتكاسة قادها نفر من رؤوس العرب ، تبعهم ناس ، بعضهم عن غفلة

وبعضهم عن عصبية ، فكانت البطولة العربية صامدة لضرب جبهة الانفصال والردة والتجزئة ، واعادة بناء الصرح العربي المتكامل الذي بدأ زحفه نحو تحرير الاجزاء المقتطعة والمحتلة والمغتصبة من يد الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين والاحباش الاثيوبيين ، بعد أن جُليت عنها البؤر العنصرية اليهودية . وقد صور شاعر اسلامي بوضوح ظلم الحكام الكسرويين والقيصريين مشيرا الى ذلك بشعره :

فان تسألينا فيم نحن فاننا
عصافير من هذا الانام المسحّرِ
عبيد لحي حمير إن تملّكوا
وتظلمنا عمال كسرى وقيصر
ونحن وهم ملك لحمير عنوة
وما ان لنا من سادة غير حمير

واذا كانت حروب التحرير قد جسدت الموقف القومي (الحقيقي للشعر العربي) فان بدايات التحرير كانت منذ ايام الردة القبلية ، وعلى وجه الخصوص بعد وفاة الرسول (ص) عندما انطلق صوت الشعر القبلي من عقاله ، بعد ان اسكتته النجاحات العظيمة التي حققها شعر الالتزام القومي . فهذا هو الحطيئة جرول بن أوس ،

الشاعر المرتد ، يؤلب الناس على القيادة العربية ، بعد ان حققت معجزة بعثهم وتوحيدهم :

اطعنا رسول الله ما كان بيننا
فيا لعباد الله ما لأبي بكرِ
ايورثها بكراً اذا مات بعده
وتلك لعمر الله قاصمة الظهرِ
فهلا رددتم وفدنا بزمانه
وهلا خشيتم حِسّ راغية البكر
وان التي ساموكم فمنعتم
لكالتمر او أحلى إليّ من التمر

ولما هاجم الذبيانيون العاصمة ، مدينة الرسول ، ارتفع صوت الردة مرة اخرى ، يبارك لهم خطوتهم ، فقال الخطيل بن اوس اخو الحطيئة :

فدىً لبني ذبيان رحلي وناقتي
عشية يحذى بالرماح ابو بكر
ولكن يدهدى بالرجال مهينة
الى قدر ما إن يزيد ولا يجري
ولله اجناد تُذاق مذاقه
لتحسب فيما عُدّ من عجب الدهر

وقد صور الحطيئة تحالف عبس وذبيان ضد المسلمين ايام الردة بعد حربهما الطويلة التي دامت

اربعين عاما وعرقت بأيام داحس والغبراء ، وهـي تسلط الضوء بقوة على جانب مظلم من حياة الامة في ذروة انقسامها ، لكن العجب في هاتين القبيلتين انهما اتحدتا لتقفا معا ضد البناء الوحدوي الناشيء الذي شاده الرسـول وانتقل الى الرفيـق الاعلى بصورة سريعة محزنة ملفتة للنظر . قال الحطيئـة يفخر بهذا المظهر السلبي :

الـم تـر أن ذبيانـاً وعبسـاً
لباغـي الحـرب قـد نـزلا براحـا
يقـال الأحربـان ونحـن حـيّ
بنـو عـم تجمعنـا صلاحـا
منعنـا مدفـع الثلبـوت حتـى
تركنـا راكزيـن بـه الرماحـا
نقاتـل عـن قـرى غطفـان لمـا
خشـينا أن تـذل وان تباحـا

وكان ابو بكر (رض) قـد اقسـم ليقاتـل المرتدين اشد قتال ثاراً لمن قتلوا من المسـلمين ، فانطلق زياد بن حنظلـة التميمي مجلجلا بصـوته العربي المعبر عن جميع القبائل المتوحدة تحت راية العروبة والاسلام :

أقمنا لهم عرض الشمال فكبكبـوا
ككبكبـة الفزّى أناخوا على الوفـر

فما صبروا للحــرب عنــد قيامهــا
صبيحة يســمو بالرجال ابو بكــر

طرقنــا بنــي عبس بأدنــى نباحهــا
وذبيــان نهنهنــا بقاصــمة الظهــر

ولا نتوغل في شعر الردة ، فهو مؤشر واضــح لانتكاسة الشعر الملتزم ، وان كان تأثيره العاطفي على الناس ملموسا ، لانه يســتثير ذكريات الماضـي القريب ، وفيه كان الانسان خلوا من كل التــزام وواجب ، حتى ان بعض العناصر ممن لم ترتد ، اندفعت وراء عواطفها الذاتية تبكي من نالتهــم سيوف العرب من جيوش التحرير ، فكان لشعرهم اسوا الاثر في نفوس البعض . وتعد بكائيات الشاعر متمم بن نويرة في أخيه مالك بن نويرة صورة ناطقة لحالة شعرية فريدة ، فقد كانت أسمى الاوســاط الثقافية ، حتى الرؤوس الكبيرة من مفاصل الدولة، تنصت بحزن الى ما كانت تفعله سيوف الوحدويين بأجساد المرتدين ، فرويت عن هذا الواقع اخبار كثيرة ، بعضها فاسد .

وتدفع الردة ، المقاتلين العرب لاتمام معركة التحرير . وكانت الراية العربية الموحدة قد نكست امامها كل رايات القبائــل التي تكتلت في كيانــات معادية للثورة على عادتهــم قبل الاسلام ، فكانت

كل قبيلة او كتلة سياسية ترفع راية ، بينما كان العرب المسلمون يرفعون راية واحدة . لقد ظهر للعرب الموحدين أن العناصر الاجنبية الدخيلة التي تضررت بالثورة بدأت تمارس ادوارا تخريبية بين القبائل ، وتحرض على القادة العرب في المعسكرات والمدن ، بل بلغت احقادها حدا ان هيأت لاغتيال رئيس الدولة العربية الجديدة ، حتى ان الخليفة عمر (رض) بعد ان طعنه ابو لؤلؤة المجوسي ، سأل عن قاتله ، فلما اخبروه باسمه الفارسي قال :

ـ « ما كانت العرب لتقتلني » . فارتفع صوت الشعر مرة اخرى نابذا كل سلبياته وتصرفاته العصبية ، متجها نحو التخوم الشرقية مقاتلا الى جانب السلاح الحربي ، حتى أصبح صوت الشعر يسمع على طول الدروب الى اقصى المدن الايرانية حتى سواحل البحار النائية ، فعادت الحناجر التي فقدت اصواتها الحقيقية الى حالتها الشعرية بعد فترة من الانقطاع والنضوب والضياع ، عاد الحطيئة المرتد الى الساحة العربية ، وعاد عمرو بن معد يكرب الى الصفوف العربية الموحدة ، وعاد غيرهما ممن فتنتهم ذكريات الماضي القريب المتسيب اللاملتزم. وكان سعد بن ابي وقاص قد أمر الشعراء من امثال الشماخ بن ضرار وعبدة بن الطبيب والمغيرة

ابن شعبة وعاصم بن عمــرو والحطيئة وعمــرو بن معد يكرب والنابغة الجعدي وقيس بن مكشـــوح والقعقاع بن عمرو التميمي وغيرهم ان ينهضـــوا ليحرضوا الناس على القتال ، فانطلقوا يلهبـــون سماء المعــركة باشعارهم ، ومــن ورائهم الرجاز والخطباء والوعاظ والقصاص والعلماء يشعلـون أوار الحماس . وكان الجنـــوب العربي مطمـع الفرس ، والتخوم الغربيـــة مطمع الروم ، وكان الرسول (ص) أول من افتتح صفحة هذه الحروب ضد الروم ، عندما حرك بعض الالوية العسكريـة باتجاه المواقع الشمالية القريبة من حدود العرب للثأر من أمير (بصرى) الذي قتــل الحــارث بن عمير الازدي ، وكان النبي قد أرسله ليبشـــره بالاسلام ويهديـــه الى عروبتـــه ودينه ، ثم كان للحملة هدف آخر هو تأمين التخوم العربية ضد الروم الذين تأثروا بتحريض اليهود بعد اجلائهـم عن المدينة وتيماء وفدك في الوقعات التي ذكـرت قبل قليل ، فجعلوا وجهتهم عرب فلسطين بعـد عرب يثرب ، ليفسدوها ، وفعلا تم لهـم ذلك . وكان وراء الحملة هدف ثالث هو الوصول الى (مآب) . وقد واكب الشعر ذلك حيث قال أحد قادة الحملة عبدالله بن رواحة قبــل استشهاده ، وهو يوم (مؤتة) :

فلا وأبـــي ، (مآب) لآتينهـــا
وان كانــت بهـــا عـــرب وروم

الشعر في جبهات التحرير

وقد واكب الشعر هذه الحملة التي اصبحت فاتحة لتحرير التخوم الغربية حيث ظهرت (ساحة اليرموك) بوجهها الناصع في اعمال العرب الادبية. وكان قائد الحملة وامير لوائها زيد بن حارثــة ، فان اصيب فجعفر بن ابــي طالب ، فان اصيب فعبدالله بن رواحة فان اصيب فليتربص المسلمون برجل من بينهم يولّونه القيادة عليهم . فتجهــز الناس ثم تهيئوا للخروج ،وهم ثلاثة آلاف ، فلما فصل الجيش ودّعهم الناس ، فلما وقفوا اللحظات الاخيرة ، بكى عبدالله بن رواحــة ، فقالوا : « ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ ! » قال : « أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكني سمعت رسول الله (ص)يقرأ من كتاب الله عزوجل ، يذكر فيها النار « وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا » فلست ادري كيف لي بالصدر بعد الورود . فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم ، وردّكم الينا صالحين ، فقال عبدالله بن رواحة :

لكنني اســأل الرحمـــن مغفـــرة
وضربةً ذات فــرع تقذف الزبــدا

او طعنةً بيدي حـــران مجهــزةً
بحربــة تُنفذ الأحشـــاء والكبــدا

حتى يقـــال اذا مرّوا على جــدثي
أرشده الله مــن غازٍ وقد رشـــدا

ثم ان القوم تهيئوا للخروج ، فأقبل عبدالله ابن رواحة على الرسول فودعه وقال :

أنت الرسول فمن يحـــرم نوافلــه
والوجه منه فقــد ازرى به القدر

فثبت الله ما أتـــاك مــن حســـن
في المرسلين ونصراً كالذي نُصِروا

اني تفرست فيــك الخير نافلـــةً
فراسةً خالفت فيك الذي نظــروا

فلما خرج الرسول ومعه القوم لوداعهم قال ابن رواحة مرة اخرى :

خَلَفَ السلامُ على امرئٍ ودعته
في النخـــل خير مشـــيّع وخليــل

قال زيد بن ارقم : ثم مضى الجيش ، وكنت يتيماً لعبدالله بن رواحة في حجره ، فخرج بي في حملته تلك الى (مؤته) مردفي على حقيبة رحله ، فوالله انه ليسير ليلة اذ سمعته وهو ينشد مخاطباً ناقته :

اذا ادّيتني وحملت رجلي
مسيرة اربعٍ بعدَ الحساءِ
فشأنك أنعم وخلاكِ ذمّ
ولا أرجعْ الى اهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني
بأرض الشام منتهي الثواء
وردّك كل ذي نسبٍ قريبٍ
الى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع بعل
ولا نخلٍ اسافلها رواءِ

فلما سمعتهن منه بكيت . فخفقني بالدِّرّة وقال : ما عليك يا لكع [أي لئيم] أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شعبتي الرحل . ثم ارتجز :

يا زيد زيد اليعملات الذبّلِ
تطاول الليل عليك فانزلِ

ثم مضوا حتى نزلوا (معان) من ارض الشام فبلغ الناس أن هرقل الروم قد نزل (مآب) من ارض البلقاء في مائة الف من الروم ومائة الف من المرتزقة ، فعزم العرب على ان يكتبوا للرسول يخبرونه الخبر ، وأصرّ عبدالله بن رواحة على القتال ، فيكون الروم مائتي الف والعرب المسلمون ثلاثة آلاف ، فقال عبدالله بن رواحة :

جلبنا الخيل من أجأ وفرحٍ
تُفَرّ من الحشيش لها العكومُ
حذوناها من الصوّان سبتاً
ازلّ كأنّ صفحته أديم
أقامت ليلتين على معانٍ
فأعقب بعد فترتها جُموم
فرحنا والجياد مسوّمات
تنفّس في مناخرها السموم
فلا وأبي ، (مآبُ) لنأتينها
وان كانت بها عرب وروم
فعبأنا أعنّتها فجاءَت
عوابس والغبار لها بريم
بذي لجب كأن البيض فيه
اذا برزت قوانسها النجوم
فراضية المعيشة طلقتها
أسنّتها فتنكح او تئيم

فحضر الناس ، حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع (هرقل) من الروم والعرب ، بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون الى قرية يقال لها (مؤتة) ، فالتقى الناس عندها ، فتعبّأ لهم المسلمون ، فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بني عذرة يقال له قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلا من الانصار

يقال له : عُبَادة بن مالك . ثم التقى الناس واقتتلوا ، والروم مائتا الف والعرب ثلاثة آلاف ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله (ص) حتى شاط (أي سال دمه فهلك) في رماح القوم ، ثم اخذها جعفر بن ابي طالب فقاتل حتى قتل ، فكان ثاني امير شهيد في هذه الوقعة . وقد وصف لنا أحد المقاتلين مشهد البطولة الذي جسده جعفر في قلوب المسلمين عند استشهاده قال : والله لكأني انظر الى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها
طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها
كافرة بعيدة انسابها
عليَّ اذ لاقيتها ضرابها

واخذ جعفر بن ابي طالب اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذها بشماله فقطعت ، فأحتضنه بعضُديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . فلما قتل جعفر اخذ عبدالله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد ، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنَّهْ
لتنزلنّ او لتُكرَهِنَّهْ
إن أجْلَبَ الناس وشدوا الرنّهْ
مالي اراك تكرهين الجنّةْ
قد طال ما قد كنت مطمئنهْ
هل انت الا نطفة" في شنّهْ

وقال :

يا نفس الا تقتلي تموتي
هذا حمام الموت قد صليتِ
وما تمنيتِ فقد أعطيتَ
ان تفعلي فعلهمَا هُديتِ

يشير الى صاحبيه الشهيدين «زيد وجعفر».

ثم نزل ، واخذ الراية وسيفه فتقدم ، فقاتل حتى قتل . فأخذ الراية ثابت بن أقرم وقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنت . قال : ما انا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، بطل العراق ثم الشام على طول الحدود الغربية ، فانحاز بالعرب واستطاع أن يجهض نصر الروم ، وان يحوّل خسارة العرب للحرب الى عزة وكرامة ، فأنقذ الجيش . وكان قطبة بن قتادة العذري على ميمنة المسلمين قد ترصّد لرجل عربي من الشام يقال له مالك ، خان

العرب وانحاز الى الروم مع كوكبة من فرسانه ، فحمل قطبة على مالك فقتله وهو ينشد :

طعنتُ ابن زافلة بن الإرا
ش برمح مضى فيه ثم انحطَمْ

ضربتُ على جيده ضربةً
فمال كما مال غصنُ السَّلَمْ

وسقنا نساء بني عمّهِ
غداة رقوقين سَوق النَّعَمْ

ولما عاد الجيش ، ودنا من (المدينة) تلقاهم الرسول والمسلمون . ولقيهم الصبيان يشتدون (أي يركضون مسرعين) فقال الرسول (ص) : خذوا الصبيان فاحملوهم واعطوني ابن الشهيد ، فأُتي بعبدالله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه . وجعل الناس يحثّون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرّار ، فررتم في سبيل الله . فيقول رسول الله (ص) : ليسوا بالفُرّار ، ولكنهم الكُرّار ان شاء الله .

واعتذر قيس بن المسخّر اليعمري عما صُنع بالجيش فقال :

فو الله لا تنفكُ نفسي تلومني
على موقف والخيل قابعة قُبْلُ

وقفت بها لا مستجيراً فنا فذاً
ولا مانعاً من كان حُمَّ له القتلُ
على أنني آسيتُ نفسي بخالدٍ
الا خالدٌ في القوم ليس له مثلُ
وجاشت لديّ النفس من نحو جعفرٍ
بمؤتةَ إذ لا ينفع النابلَ النبلُ
وضمَّ الينا حجزتيهم كليهما
مهاجِرة لا مشركون ولا عُزْلُ

فحسم الشعر موقف الناس ، واظهر لهم ان الفرسان في مؤتة لما وجدوا تفاوتا في الكفتين ، وانه من خطل الرأي أن يباد ثلاثة آلاف فارس عربي مسلم بأيدي مائتي الف رومي من البيزنطيين والمرتزقة ، تحاجزوا وكرهوا الموت عبثا ، فحقق انحياز خالد بن الوليد بمن معه منهم نجاحا في الخطة وانقاذا للموقف من كارثة محققة ، حتى ان الزهري يقول : ان المسلمين أمّروا خالد بن الوليد عليهم ففتح الله عليهم ، وكان عليهم حتى قفل الى النبي (ص) . فاعتبر الزهري نجاح خطة خالد فوزا وفتحا .

وبينما الناس يحثون الجيش بالتراب ، والرسول يدافع عنهم ، وقف شاعر من المسلمين مقاتل ، كان قد رجع لتوه من مؤتة مع الجيش فأنشد وقال :

كفى حزناً أني رجعتُ وجعفرٌ
وزيدٌ وعبدالله في رمس أقبُرِ

قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم
وخلفت للبلوى مع المتغبّرِ

ثلاثة رهط قُدّموا فتقدموا
الى وِردِ مكروهٍ من الموت أحمر

فهو بموقفه هذا ، يعكس للناس شعور الالم المحض بأنه ليس سعيدا بعودته وزيد وجعفر وعبدالله في قبورهم لم يرجعوا . ولقد كان لمؤتة ابلغ أثر واعمقه في نفوس الامة العربية ، وكان حافزا لتحرير الشام والاصقاع العربية التي تليها ، كما كان هذا اليوم شاحذا لمشاعر العرب وموقظا لاحزانهم الى ان يأخذوا بثأرهم ويطردوا المجرم المحتل ، فانطلق الشعر محفزا وموثبا في اروع قصائد الرثاء التي كانت تقال في الامراء الشهداء الثلاثة ، وبوجه خاص في جعفر ابن عم الرسول وقائد هجرة الحبشة . قال حسان بن ثابت :

تأوبني ليل بيثرب اعسرُ
وهمٌ ، اذا ما نوّمَ الناس مسهرُ

لذكرى حبيب هيجت لي عبرة
سفوحاً واسباب البكاء التذكر

بلى ، إنّ فقـدان الحبيب بليّـــه
وكــم مــن كريم يبتلى ثــم يصبــر
رأيت خيـــار المؤمنـــين تواردوا
شعـــوبَ وخلفاً بعدهم يتأخـــر
فلا يبعدن اللـــه قتلى تتابعـــوا
جميعـــاً واسباب المنيـــة تخطر
غداة مضـــوا بالمؤمنين يقـــودهم
الى الموت ميمون النقيبـــة أزهـــر
أغرُّ كضوء البدر من آل هاشـــم
أبيٌّ ، اذا سيم الظلامة ، مِجْسَرُ
فطاعن حتى مـــال غير موسَّـــدٍ
بمعترك فيـــه قنـاً متكسِّـــر
فصـــار مـــع المستشهدين ثوابـــه
جنان وملتفّ الحـــدائق اخضـــر
همُ جبل الاسلام والناس حولهـــم
رضـــام الى طود يروق ويقهـــر
بهـــا ليـــل منهم جعفـــر وابن أمـــه
عليٌّ ، ومنهـــم أحمـــد المتخيَّر
وحمـــزة والعبـــاس منهم ، ومنهم
عقيل وماء العود من حيث يعصـــر
بهـــم تفـــرج اللـــؤاء في كل مأزقٍ
عماسٍ اذا ما ضاق بالناس مصدر

هم اولياء الله أنزل حكمه
عليهم ، وفيهم ذا الكتاب المطهر

وقال كعب بن مالك :

نام العيون ودمع عينك يهمل
سحاً كما وكف الطباب المخضل
في ليلة وردت علي همومها
طوراً أحن وتارة أتململ
واعتادني حزن فبت كأنني
ببنات نعش والسماك موكل
وكأنما بين الجوانح والحشا
مما تأوبني شهاب مدخل
وجداً على النفر الذين تتابعوا
يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صلى الإله عليهم من فتية
وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للاله نفوسهم
حذر الردى ومخافة ان ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم
فنق عليهن الحديد المرفل
اذ يهتدون بجعفر ولوائه
قدام أولهم ونعم الأول
قرم علا بنيانه من هاشم
فرعاً أشم وسودداً ما ينقل

قوم بهم عصم الإله عباده
وعليهم نزل الكتاب المنزل

فَضَلُوا المعاشر عزة وتكرُّماً
وتفمدت احلامهم من يجهل

لا يطلقون الى السفاه حُباهم
ويرى خطيبهم بحقٍ يفصل

بيض الوجوه ترى بطو اكفهم
تندى اذا اعتذر الزمان الممحل

وبهديهم رضى الاله لخلقه
وبجدهم نصر النبي المرسل

ولا يتسع الموضع لاستقصاء الشعر الذي قيل في هذه الملحمة الكبيرة ، فهو كثير تذكره المصادر ، بين رثاء وفخر وحماسة ورجز . ويتمتع يوم مؤتة بخصوصية بين ايام العرب في الاسلام ، فهو أول لقاء عربي ضد الروم المحتلين ، كما انه يرقى بتاريخه الى عصر النبي (ص) مما يعطي لرسول الدعوة صفة المحرر فكريا وقوميا . وليس للعرب ايام مذكورة بالشعر قبل الاسلام ضد الروم ، كما ليس لهم ذلك بعده أيضا ، رغم ساحة اليرموك الواسعة ، وانما انحصرت اشعار التحرير ضد الفرس ، أي في ساحة القادسية ، وذلك لاسباب

عديدة ، لعل أحد هــذه الاسباب ، أن الفارســية الاخمينية ثم الفارسية الساسانية ، اســتهدفت عبر التاريخ الطويل ، ثقافة الامة العربية بالاساءة والهدم والتخريب والمسخ والتشويه حتى ايــام الدولة العربية العباسية ، فلم تسلم من ايديهم غير الدولة العربية الاموية لانها كانت متيقظة ، ومــع ذلك يعزو المؤرخون زوال هذه الدولة الى الفــرس الاعاجم بنسبة مساهمتهم بما لا يقل عن خمسين بالمائة . لذلك كان العرب يشعرون بضرورة اشاعة ثقافتهم وتوسيع دائرة اعلامهم عن طريق الشــعر الذي يمتلك تأثيراً سحرياً في المنطقة كلها منذ آلاف السنين والى اليوم . سبب آخر ، هو مباشــرة الاحتلال الفارسي للوطن العربي بنفسه دون واسطة فكانت عاصمتهم الشتوية (طيسفون) [المدائــن الاولى] ثم [المدائن الثانية] داخل الاراضي العراقية بينما كان الروم البيزنطيون يتركون للعرب حكــم انفسهم ، حقاً كانت الحيرة عاصمة عربية ، وكان ملوكها من المناذرة وهم عرب ، لكن المدائن كانت هي المركز السياسي المتحكم بقبضته على كل الامور . واذا أضفنا عامل التجاور ، حيث تتصل الارض العربية مباشرة بالاراضي الايرانية ، نكون قــد اصبحنا على أوضح صورة فيما يخص كثرة الشعر في التخوم الشرقية قياساً الى انعدامها في التخوم

الغربية ، حيث كان العرب يحرصون على تأصيل لغتهم بالشعر ، تجاه التيار الشعوبي القادم اليهم من الاراضي الفارسية . وعندما نضيف الى ما تقدم كون جميع القبائل التي ساهمت في حرب الفرس هي قبائل الشمال ، وقد رافقهم شعراء نجد والحجاز ، يظهر لنا أن القبائل التي ساهمت في حروب الروم هي قبائل اليمن وحضرموت والجنوب العربي . ونحن نعلم أن شمال الجزيرة أغزر انتاجاً في الشعر والادب من جنوبها منذ العصر الجاهلي ، وان حركة القبائل كانت نحو الشرق والغرب منذ ذلك العصر أيضا ، فقد اتصلت غسان بارض الشام عند انفجار السد ، بينما ظلت قبائل معد وبالاخص بكر بن وائل تسيح في الارض من نهاية السواد حتى هضبة ايران ، فكان هذا المظهر من اخطر العوامل في الهاب وتر الشعر ليبعث بأعذب الحانه واشجى اغانيه وأفخم ملاحمه .

وبعد ملحمة (مؤتة) لا يطالعنا في (ساحة اليرموك) أدب مصيري يلفت اليه الانظار ، مع أن يوم « تبوك » يعد من أيام التحرير ضد الروم حيث أمر الرسول المسلمين ان يتجهزوا ، وذلك في شهر رجب من سنة تسع للهجرة ، لانه اراد غزو الروم، عندما علم بان جماعة من المرتزقة قد انضمت الى جند الروم لمحاربة دولة الوحدة وعاصمتها ، وان

طلائعهم قد وصلت الى البلقاء من أرض الشام ، وقد نزلت في هذا اليوم سورة (التوبة) ، وافتضح في هذا اليوم أمر المنافقين . وبلغ رسول الله أن أناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، وكان بيته عند (جاسوم) « موضع » يثبّطون الناس عن الرسول في وقعة تبوك ، فأنفذ اليهم الرسول مجموعة من فرسانه ، وأمرهم أن يحرقوا عليهم بيت سويلم ، وكان فيه من بين الخصوم ، الشاعر ابن ابيرق الذي كان يكتب القصائد في هجاء الرسول والمسلمين وينحلها غيره من الشعراء، وشاعر آخر يقال له الضحاك ، أفلتوا جميعهم ، فقال الضحاك ، وكان قد نجا بعد ان القى بنفسه من ظهر البيت وكسرت ساقه :

كادت وبيت الله نار محمد
يشيط بها الضحّاك وابن أبيرقِ

وظِلْتُ وقد طبقت كبس سويلم
انوء على رجلي كسيراً ومرفقي

سلام عليكم لا أعود لمثلها
أخاف ومن تشمل به النار يُحرق

وقال ابو خيثمة مالك بن قيس في ساحة تبوك :

ولما رايت الناس في الدين نافقـــوا
أتيتُ التي كانت اعفّ وأكرمـــا
وبايعت باليمنـى يـدي لمحمـدٍ
فلم اكتسب إثماً ولم أغشَ محرما
تركت خضيباً في العريش وصـرمة
صفـايا كراماً بُسـرها قد تحمّما
وكنت اذا شك المنافـــق اسمحت
الى الدين نفسي شطره حيث يمّما

وكان رسول الله (ص) لما انتهى الى تبـــوك صالحه أهلها على الجزية ، فكتب ليوحنا بن رؤبة هذا الامان : « بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هـــذه أَمَنَة" من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة واهل « أيله » ، سفنهم وسيارتهم في البـر والبحر : لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومـن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر. فمن أحدث منهم حدثا ، فانه لا يحول مالـه دون نفسـه ، وانه طيب لمن اخـذه من الناس ، وانـه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » وبذا تكون (مؤتة) و (تبوك) من ايام الرسول ضد الاحتلال البيزنطي ، تضاف الى استبشاره بنصر ذي قار ، واعتبـاره أول يـوم تنتصف فيـــه العـرب من الفـرس . ومع ان (اليرموك) هي ساحة العرب الكبرى بعد القادسية،

الا أن شعرها قليل ، وهي مسيرة طويلة صعبة قوامها الصحراء والعطش ، وقال فيها شاعر من المسلمين بعد اجتيازها وعثور رافع بن عميرة الطائي ، دليل خالد بن الوليد على الماء مجتازا (قراقر) الى (سُوى) ليصل اليرموك :

للّهِ عينا رافع أنّى اهتدى
فوّز من قراقرٍ الى سُوى
خمساً اذا ما سارها الجيش بكى
ما سارها قبلك إنسيٌّ يُرى

فلما داهمهم خالد ، وجد ناساً منهم يشربون خمراً وساقيهم يغني ويقول :

الا عللاني قبل جيش أبي بكر
لعل منايانا قريب وما ندري
الا عللاني بالزجاج وكرّرا
عليَّ كميت اللون صافية تجري
الا عللاني من سلافة قهوة
تسلّي هموم النفس من جيد الخمر
اظن خيول المسلمين وخالداً
ستطرقكم قبل الصباح من البِشْرِ
فهل لكمُ في السير قبل قتالهم
وقبل خروج المحصنات من الخدر

فقاتلهم خالد ، وظفر بهم ، وسار في طريقه

ليواجه الروم ، وكان (باهان) قد جاء بمدد عظيم، فلما قدم خالد الى اليرموك لم يعسكر الى جانب معسكر ابي عبيـدة ومعســكر عمرو بن العاص ومعسكر شرحبيل ، بل عسكر على حدة ، وكانت منه خطة بارعة ، رافقتها العملية التراجيدية التي قام بها خالد في اخفاء كتاب عمر بن الخطاب بعزله وتنصيب ابي عبيدة الجراح ، لحين انتهاء الحرب خوفاً من اخماد جذوة المسلمين وتشتت عواطفهم ، فلما انتهت الحرب بالفوز ، سلم خالد الكتاب الى ابيعبيدة بالامارة ، ثم قال : «الحمد لله الذي قضى على ابي بكر بالموت ، وكان احبّ اليّ من عمر ، والحمد لله الذي ولّى عمر ، وكان ابغض اليّ من ابي بكر ثم ألزمني حبه » . وكان ذلك من خالـد تصرفاً قيادياً حكيماً لم يغضب عمر (رض) .

إن الابطال وحدهم ، يملكون قوة التوجيـه الأدبي في المعركة ، أما بقيـة الشعراء ، فانهـم يستثمرون النتائج بعد المعركة ، ويقدحون شررها قبل وقوعها . ومن هؤلاء الشعراء الابطال القعقاع ابن عمرو ، وكان ضمن كتيبة خالد ، وقد صـور مسيرة الجيش الى اليرموك :

بدأنـا بجمع الصفّريـن فلم نـدع
لغسان انفاً فـوق تلـك المفاخـر

صبيحة صاح الحارثان ومن به
سوى نفر نجتذّهم بالبواتر
وجئنا الى بُصرى وبُصرى مقيمة
فألقت الينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها ابوابها ثم قابلت
بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

والقعقاع أحد رموز (ساحة القادسية) الكبيرة أيضا ، سنلتقي به هناك ثانية . وكان خالد قد قسّم الجيش الى كراديس جعل عليها فرسان المسلمين ، وكان القعقاع على احدى الكراديس ، فاستفتح المعركة يرتجز ، وقد برز للقتال قائلا :

يا ليتني ألقاك في الطراد
قبل اعترام الجحفل الورّادِ
وانت في حلبتك الوِرادِ

وتبعه عكرمة بن أبي جهل وكان قائد كردوس من الكراديس ، فحمل على الروم وقال :

قد علمت بهكنة الجواري
إني على مكرمة أحامي

وكان القاص في اليرموك هو ابو سفيان بن حرب يسير فيقف على الكراديس فيقول : « الله الله !! إنكم ذادة العرب وانصار الاسلام ، وإنهم

ذادة الروم وانصار الشرك ، اللهم ان هذا يوم من ايامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك » .

وكان ابو أحيحة القرشي يتغنى بعبقرية خالد التي اجتازت الصحراء في أخصر طريق ، كما تغنى بعبقرية دليله سابقا ، فقال :

لله درّ خالد أنى اهتدى
والعين منه قد تغشّاها القذى

معصوبة كأنها ملئت ثرى
فهو يرى بقلبه ما لا يرى

قلب حفيظ وفواد قد وعى

وتختلط ذكريات القادسية بذكريات اليرموك، فتنطلق قريحة الشاعر الفارس القعقاع بن عمرو مصورة تساقط الروم البيزنطيين في (الواقوصة) مشيدة بكتيبة خالد وما فعلته من الافاعيل في العراق فيقول :

الم ترنا على اليرموك فزنا
كما فزنا بأيام العراق

قتلنا الروم حتى ما تساوى
على اليرموك مفروق الوراق

فضضنا جمعهم لما استحالوا
على الواقوصة البتر الرقاق

غـداة تهافتـوا فيهـا فصـاروا
الـى أم تعضّـل بالـذواق

وانذر شاعر بفتح باب «توماء» مع ابي سفيان فقـال :

الا ابلـغ ابـا سـفيان عنا بأننـا
عـلى خير حـال كـان جيش يكونها
وانـا عـلى بـاب لتومـاء نرتمـي
وقد حان مـن باب لتومـاء حينها

ولما فتحت دمشق ، عاد العرب المحررون الى مدينة (فحل) حيث تركوا هناك بعض الجند من العرب يناوشون روماً يقدّرون بزهاء ثمانين الف محارب ، فالتقوا بهم وانتصروا عليهم انتصارا مبينا فقال القعقاع بن عمرو يصور ذلك :

وغـداة فحـل قد راونـي معلمـاً
والخيـل تنحـط والبـلا اطوار
ما زالت الخيـل العـراب تدوسهم
في حـوم ءمـل والهبـا مـوّار
حتى رمـين سراتهـم عن ُسرهـم
في روعـة ما بعدهـا استمرار

ومثله قول علقمة بن الارث العبسي :
ونحـن قفلنـا كـل واق بآلـه
من الروم معـروف النجـاد منطّق

ونحن طلقنـا بالرمـاح نساءهـم
وأبنـا الـى ازواجنـا لم تطلّـق
وكـم من قتيـل ارهقتـه سيوفنا
كفاحاً وكفٍ قـد اطيحت واسؤق

وهكذا جعل الشعراء الفرسـان يرتجزون وينشدون عند مقتل كل قائد روماني أو عند تحرير مدينة عربية . ففي فتح (اجنادين) وفرار (ارطبون) مثلا قال زياد بن حنظلة :

ونحـن تركنـا ارطبون مطرّداً
الى المسـجد الأقصى وفيه حسور
عشـية اجناديـن لمـا تتابعـوا
وقامت عليهـم بالعـراء نسـور
عطفنـا لهم تحت العجاج بطعنـة
لها نشج نائـي الشـهيق غزيـر
فطمنـا بـه الروم العريضة بعـده
عن الشام ادنى ما هنـاك شـطير
تولت جميـع الـروم تتبـع اثـره
تكـاد من الذعـر الشـديد تطـير
وغُودرَ صـرعى في المكرّ كثـيرة
وعـاد الـيه الفَلّ وهـو حسـير

وقال الشاعر نفسه في تحرير الشام أيضا :

تذكـرت حـرب الروم لما تطـاولت
واذ نحـن في عـام كثـير نزائلـه

واذ نحـن في ارض الحجـاز وبيننا
مسـيرة شـهر بينهـن بلابلـه
واذ ارطبـون الـروم يحمي بـلاده
يحـاوره قـرم هنـاك يسـاجله
فلما رأى الفـاروق ازمـان فتحها
سما بجنـود الله كيمـا يصاولـه

ومن غريب ما نصادفه في ادب المعركة المصيرية ضد الروم ، قصيدة تنسب لابي العيال الهذلي ، ارسل بها صاحبها الى طائفة من قادة العـرب المسلمين يومئذ ، ويقول عنها باحث معاصر « وفي راينا ان القصيدة كانت في محاولة الروم استعادة مصر للمرة الثانية ، بحملة (منويل) الداخلة في مشروع (قسطانز) لاستعادة الامبراطورية الرومية لمصر والشام . وهذه الحملة كانت في عام (٢٥ هـ) في الوقت الذي كان فيه معاوية بن ابي سفيان واليا للشام ، ويعمل بكل قواه لرد طرف الحملة الثاني عن الشام ، اذ كانت حملة مزدوجة ذات شعبتين . وليست هناك حوادث تاريخية جمعت بين هؤلاء الذين يتوجه اليهم الشاعر برسالته الا هذه الحملة فمعاوية امير الشام يقضي على حملة (مانويل) في الشام ، فمنيت امامه بهزيمة فادحة ، وعبدالله بن سعد هو امير مصر ، وعمرو بن العاص محررها ،

واميرها السابق الذي تصدى لهذه الحملة بعد أن أتى به الخليفة وكلفه بها ، وقد كانت توغلت داخل الاراضي المصرية وكان عددها كبيرا ، اذ قدمت في ثلاثمائة سفينة ، وتقدمت من الاسكندرية التي استسلمت مباشرة الى حصن (بابليون) ووقفت على اطراف الصعيد كما يقول ابو العيال ، ونهد اليها عمرو بن العاص في نقيوس ، وهزمها ، وعادت تتحصن في الاسكندرية وتنصب المجانيق على اسوارها ، فسواها عمرو بالتراب ، ودخل المدينة في الوقت الذي انتهى منه من القضاء على الحملة في الشام » ، فالقصيدة انذار شعري تستنهض القادة تذكرنا بقصيدة لقيط بن يعمر الايادي قبيل ذي قار . قال ابو العيال الهذلي :

من ابى العيال ابي هذيل فاعرفوا
قولي ولا تتجمجموا ما أرسلُ

أبلغ معاوية بن صخر آيةً
يهوي اليه بها البريد المعجل

والمرء عمراً فأته بصحيفة
منّي يلوح بها الكتاب المنمل

والى ابن سعد إنْ أؤخره فقد
أزرى بنا في قسمة اذ يعدل

والى أولي الاحلام حيث لقيتهم
حيث البقية والكتاب المنزل

انــا لقينـــا بعـــدكم بديارنا
مــن جانب الامراج يــوما يســأل

امرأ تضيق بــه الصــدور ودونــه
مهج النفوس وليس عنه معــدل

في كل معــركة يــرى منــا فتىً
يهــوى كعــزلاء المزادة يزغــل

او سيد كهـــل تمــور دماؤه
او جانح في صـــدر رمــح يسعــل

حتــى اذا رجــب تخلّى وانقضى
وجمــاديان وجاء شهـــر مقبـــل

شعبان قـــد رنا لوقف رحيلهــم
سبعاً يعـــدّ لهـــا الوفاء فتكمل

وتجــردت حــرب يكون حلابهـــا
علقــاً ويمريهــا الغـــويّ المبطل

فاستقبلوا طرف الصعيد اقامـــةً
طــوراً وطــوراً رحلـــة فتنقّـــل

فترى النبـــال تعير في أقطــارنا
شمســاً كأن نصالهــن السنبـــل

وترى الرماح كأنمـــا هي بيننـــا
اشطـــان بئر يوغلــون ونوغــل

وقد لاحظ بعض الدارسين « أن القصـــيدة ليست كاملة ، وان تسلسل الفكرة فيها منعدم » . ومما نلاحظه على الشعر في هذه الاصقاع ، امتدادا

من الشام حتى مصر ، هو ظهور تطور في آلة الحرب ، فبدأت تظهر في الشعر آلة المنجنيق مثلا وحرب النار وحصار المدن والقلاع ، ولم يكن لها اثر في حروب الردة او انتكاسة الوحدة أو حروب التخوم الشرقية التي حفلت بأغزر الشعر واشده حماسة وقوة أسر ، كما حفلت بأشجى الشعر واعذبه .

ونستطيع أن نستخرج من شعر التحرير والفتوح بعض السمات الفنية التي تعد من أوضح مؤشرات الالتزام في الشعر . لقد خلقت حركة التحرير او النزوح بعيدا عن الاوطان ، معاناة جديدة في الشعر ، كان من نتائجها ذلك الحس القومي الملتهب والحب العميق للارض العربية وقوة الارتباط بها ، فكان بعض الشعراء تستثيره مشاهد الطبيعة الخلابة في الغربة ، فتهز احساسه نحو ارضه وقومه . وربما كان مشهد البرق الملتمع من اقاصي جهات الشام أو نجد او الحجاز او اليمن او العراق ، كان مدعاة لشعور شجي واحساس حزين نحو تلك الاوطان التي اصبحت بعيدة لا يزورها الشاعر الا في طيف الخيال أو على اجنحة الاحلام كقول كثير بن الفريزة النهشلي ، وقد الهب البرق خياله في الغربة :

سقى مزن السحاب اذا استقلت
مصارع فتية بالجوزجان
الى القصرين من رستاق خوط
أقادهم هناك الأقرعان
وما بي أن اكون جزعت الا
حنين القلب للبرق اليماني
ومحبور برؤيتنا يرجّى اللقا
ء ولن اراه ولن يراني

وحقا ما تنبأ به الشاعر ، فان الموجات العربية المتدفقة على الشرق والغرب قد توطنت هناك ، وتزوجت وانسلت ، وانجبت اجيالا واجيالا ومثله قول رفيقه في السلاح ، يحن الى نجد وقد لمح خيالها يلوح من بين لمعان البروق :

اتبكي على نجد وريّا ولن ترى
بعينيك ريّا ما حييت ولا نجدا
ولا مشرفاً ما عشت أقفار وجرة
ولا واطئاً في تربهن ثرى جعدا
ولا واجداً ريح الخزامى تسوقها
رياح الصبا تعلو دكادك او وهدا
تبدلت من ريّا وجارات بيتها
قرى نبطيات يسمينني مردا
الا ايها البرق الذي بات يرتقي
ويجلو دجى الظلماء ذكرتني نجدا

الم تــر أن الليــل يقصر طولـــه
بنجد وتزداد الرياح بـــه بـردا

وقال مقاتل ثالث ، يرسم خطو رفيقه فــي الحنين :

احــن الى روض الحجاز وحاجتي
خيــام بنجـد دونه الطرق تقصر
وما نظــري من نحــو نجـد بنافع
أجلْ لا ، ولكني الى ذاك انظـــر
أفي كــل يــوم نظـرة ثم عبـــرة
لعينيــك مجـرى مائهــا يتحــدر
متى يســتريح القلب اما مجـــاور
بحـــربٍ وامــا نازح يتذكـــر

لقد كانت هذه الاناشيد الشجية تملأ فضاء المعركة دويّاً قوميا ، وتنتقل من أرض الغربة الى أرض العروبة ، فتكون غذاء الناس الروحي ومعينهم الذي لا ينضب في التربية الوطنية ، حتى اننا لنجد الادباء فيما بعد يصنفون الكتب والرسائل في اشعار الغربــة والحنين الى الوطن كمــا فعــل الجاحظ واصحاب الحماسات والاختيارات وكتب الادب في العصر العباسي .

وتعدّ (ساحة القادسية) اكبر الســاحــات

العربية بلاءً وشرفاً وفخراً ، وان ايامها لتطول واشعارها لتتدفق وابطالها يزدحمون حتى ما تدري لمن تأخذ ، خالد أم سعد أم القعقاع أم المثنى أم عمرو بن معد يكرب أم قيس بن مكشوح أم النعمان ابن مقرن أم ابو عبيد بن مسعود أم ابو محجن ، فهذا المثنى ، يتفوق في يوم « البويب » على الفرس بذكائه ورأيه وشجاعته مع ما للفرس من وفرة العدد ، فقال فيه الشاعر الأعور الشنّي :

هاجت لأعور دار الحي احزانا
واستبدلت بعد عبدالقيس همدانا
وقد ارانا بها والشمل مجتمع
اذ بالنخيلة قتلى جند (مِهرانا)
أزمانَ سار المثنى بالخيول لهم
فقُتّل القوم من فرسٍ وكيلانا
سما لأجناد مهران وشيعته
حتى أبادهم مثنى ووحدانا
ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى
مثل المثنى الذي من آل شيبانا
ان المثنى الأمير القرم لاكذب
في الحرب اشجع من ليث بخفّانا

وقد نستغرب من اجتماع الفرس والروم والمرتزقة من غيرهما في وقعة تدعى (الفِراض)

نصر الله العرب المسلمين فيها نصراً قطع دابر هذا التحالف الباغي ، فقال القعقاع بن عمرو :

لقينا بالفراض جموع روم
وفرس غمها طول السلام
أبدنا جمعهم لما التقينا
وبيّتنا بجمع بني رزام
فما فتئت جنود السلم حتى
رأينا القوم كالغنم السوام

وكانت القادسية ونهاوند اكبر وقعتين خاضتهما العرب في الاطراف الشرقية ، ولا عجب ، فهذا الجناح اكثر الاجنحة العربية خطورة وحساسية ، فلم يكن العرب ولا الفرس قد شهدوا معركة اشدّ هولا وفزعاً منها ، حيث قدر المؤرخون شهداء العرب فيها بثلاثة آلاف ، وقتلى الفرس بثلاثين الفاً . وقد كان مقتل رستم خاتمة الحرب، وانه لمن اطرف ما يروى في مقتله أن القبائل والعرب تنازعت بالشعر في احتجان شرف قتله لكي تنسب لنفسها تحرير هذا الجناح الكبير . فادعى قتله القعقاع ونسبوا اليه قوله عند مقتل رستم :

نحن قتلنا معشراً وزائدا
اربعة وخمسة وواحدا
نحسب تحت اللبد الاساودا
حتى اذا ماتوا دعوت واحدا

الله ربي واحترزت عامـدا

ونسب عمرو بن معد يكرب هذا الانجاز الى سيفه حيث قال :

ألم بسلمى قبل ان تظعنا
إن لنا من حبها ديدنا
قد علمت سلمى وجاراتها
ما قطّرَ الفارس الا أنا
شككتُ بالرمح حيازيمه
والخيل تعدو زيماً حولنا

وهذا زهير بن عبد شمس ، يحوز بهذا الشرف لنفسه ويقول :

أنا زهير وابن عبد شمس
أرديت بالسيف عظيم الفرس
رستم ذا النخوة والدمقس
اطعت ربي وشفيت نفسي

ثم جاء دور عمرو بن شأس الاسدي ليفخر بهذا الصنيع وينسبه الى قبيلته :

جلبنا الخيل من اكناف نيقٍ
الى كسرى فوافقها رعالا
تركن لهم على الأقتام شجواً
وبالحقوين أياماً طوالا

وداعيـــة بفـارس قـد تركنـــا
تبكّـــي كلمـــا رأت الهـــلالا
قتلنا رستماً وبنيـــه قســـراً
نثـير الخيـل فوقهـم الهبـــالا
وفـرَّ الهرمـزان ولـم يحـامِ
وكـان عـلى قبيلتـــه وبـــالا
تركنـا منهـم حيـث التقينـــا
قيامـاً مـا يريـدون ارتحـــالا

ولا تعد ظاهرة تنازع القبائل في قتل رستم مشكلة ، فهي ، كما يشير واقع الحال ، تفيد أن جميع القبائل سارعت بأنجب فرسانها لتحوز لنفسها بقسط من شرف المساهمة في القضاء على هذا الطاغية لكي لا تكون في معزل عن هذا الانجاز الحربي المهم عند تفاخر القبائل بذلك . ولربما كانت كل قبيلة صادقة في شعرها ، لأن القادة الفرس كانوا يرتدون جميعاً بزّات عسكرية متشابهة ، ولم تكن وجوههم تظهر لكثرة ما يضعون على رؤوسهم واجسادهم من السلاح ، فلم يكن بالهيّن معرفة رستم بين من يشبهونه في اللباس والتنكر ، فكانوا يغيرون على الجميع دون تمييز الأصل من الاشباه ، فيقتلونهم . لذلك جاءت هذه الظاهرة الشعرية في تعدد النسبة لمن قتل القائد الفارسي المجوسي رستم .

وكنت قد اعطيت بعض الملامح الجديدة لاشعار

المعارك العربية ضد الاجنبي المحتل من قبيل ذكرها للاسلحة المتطورة التي استخدمت في ضرب القلاع والحصون ، واسلحة الحرق والتدمير الى جانب السيف والرمح ، لكن يبقى السيف رمزاً خالدا في التعبير عن النصر والشجاعة ، وكذلك يلفت نظرنا مظهر جديد في الموضوعات العربية الموروثة . فالرثاء وان كان في العصر الجاهلي قد تميز عن سواه من الاغراض ، حيث أخذت قصيدة « التأبين » شكل التقليد الجاهلي الشعر ، عندما يكون الفقيد قد مات موتا طبيعيا ، لكن (رثاء الفرسان) يبدو وكأنه قد تخلص من هذه التقاليد في ذكر الطلل مقروناً بالغزل والرحلة . اما في الشعر الحربي ، اثناء معارك التحرير ، فقد أخذ (الرثاء) بعداً جديداً الى جانب ما أصابه في العصر الجاهلي من التطور حيث أصبح الرثاء استبشاراً بحتمية الشهادة والفوز بجنان الخلد ، مع التأكيد على أن قتلى المشركين والمجوس في النار . وهو معنىً اوحته الصيغ العربية الاسلامية الجديدة . ويتبع هذا التجديد ، رثاء الفرسان لأنفسهم ، ورثاؤهم لبعض ما يفقدونه في الحرب من أعضاء جسمهم مثل عيونهم وايديهم وارجلهم ، فعندما استحرّ الموت برفاق كثير النهشلي جزع على هؤلاء الشهداء ، فرثاهم ورثى نفسه ، لانه واثق من استشهاده

القريب ، وقد بدأ القصيدة برفاقه الشهداء ، فلما انتهى منهم، قال يرثي نفسه :

فلا تستبعدا يومي فاني
سأوشك مرة أن تفقداني
ويدركني الذي لابد منه
وان أشفقتُ من خوف الجنان
وتبكيني نوائح معولات
تركن بدار معترك الزمان
حبائس بالعراق منهنهات
سواجي الطرف كالبقر الهجان
أعاذلتيَّ من لوم دعاني
وللرشد المبيّن فاهدياني
وعاذلتي صوتكما قريب
ونفعكما بعيد الخير ، وان
فردّا الموت عني ان أتاني
ولا وأبيكما لا تفعلان

وهذه الظاهرة ملموسة في ادب المعارك القومية، فمثله فعل أخو بني كاهل في قصيدته القافية ، ومالك بن الريب في يائيته المشهورة . لكن هذه الظاهرة جاهلية أيضا بدأها عبد يغوث بن صلاءة في يائيته التى حكى بحرها وقافيتها مالك . ومما قاله الشعراء في اجزاء من جسمهم تصاب في الحرب

قول عبدالله بن سبرة حين قتل (ارطبون الروم)
فقطع ارطبون اصابع يده بضربة من سيفه :

فان يكن أرطبـون الـروم افسدها
فانَّ فيهـا بحمــد الله منتفعـــا

بنانتــان وجرمـــوز أقيــم بـه
صدر القنــاة اذا ما آنســوا فزعـا

وان يكـن أرطبـون الروم قطعهـا
فقـد تركت بهـا أوصالـه قطعـا

وقد حفلت كتب الادب وتراجم الصحابـــة واسفار المؤرخين باشعار الفرسان يذكرون اعضـاء جسمهم التي تسببت الحرب ببترها ، فيفخرون بذلك ، مما يضفى على الاتجاه الموضوعي لاشعـار المعارك المصيرية القومية لونا جديدا من الالتزام لم يسبق أن التقينا به في شعر العرب في المراحـــل المتقدمة .

طائفـــة من المصادر والمراجـع المعتمدة في البحث :

١ ــ السيرة النبوية ــ ابن هشام ــ ت : مصطفى السقا وجماعته .
٢ ــ تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر الطبري ــ طبع ليدن ١٨٩٣ .
٣ ــ الاغاني ــ لأبي الفرج الاصفهاني ــ دار الكتب المصرية .
٤ ــ ديوان الاعشى ــ ت : محمد محمد حسين ١٩٥٠م .
٥ ــ ديوان امية بن ابي الصلت . ت : د. بهجة عبدالغفور . نشر وزارة الاعلام العراقيـــة ١٩٧٥م .
٦ ــ ديوان لبيد بن ربيعة . ت : الدكتور احسان عباس . نشر الكويت ١٩٧٤ .
٧ ــ ديوان لقيط بن يعمـــر . ت : د. خليـــل ابراهيم العطية . نشر وزارة الثقافة والاعلام العراقية ١٩٦٨م .
٨ ــ ديوان النابغة الذبياني ت : الاستاذ محمـــد ابو الفضل ابراهيم . نشر دار المعارف بمصر ١٩٧٢م .

٩ ـ ديوان عدي بن زيد العبادي ت : محمـد جبار المعيبد . وزارة الثقافـة والاعـلام العراقية ١٩٦٥م .
١٠ـ معجم البلدان لياقوت الحموي . ط . ليبزك ١٨٦٦م .
١١ـ معجم ما استعجم للبكـري . ت : مصطفى السقا ١٩٤٥ .
١٢ـ الأمالي لأبي علي القـالي . ط ـ دار الكتب ١٩٢٦ .
١٣ـ فتوح البلدان للبلاذري . ليدن ١٨٦٦م .
١٤ـ خزانـة الادب للبغـدادي . ط . بولاق ١٢٩٩هـ .
١٥ـ العمدة لابن رشيق . ط. السعادة ١٩٠٧ .
١٦ـ الطبقات الكبرى لابن سعد . ليدن ١٣٢٢هـ.
١٧ـ طبقات فحـول الشعراء لابن سلام . ت : الاستاذ محمد محمد شاكر مصر ١٩٧٢ .
١٨ـ فتوح مصر والمغرب ـ ابن عبدالحكم . مصر ١٩١٤ وليدن ١٩١٤ .
١٩ـ العقد الفريد ـ ابن عبدربه ـ لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٢م .
٢٠ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ت : احمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٦م .

٢١ـ المفضليات ـ للضبي ت : احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر .
٢٢ـ فتوح الشام ـ الواقدي ـ مصر ١٣٠٢هـ .
٢٣ـ ديوان الهذليين ـ نشر دار الكتب المصرية .
٢٤ـ الاصنام لابن الكلبي ـ تحقيق الاستاذ احمد زكي باشا ـ دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ .
٢٥ـ شاعرات العرب لبشير يموت ـ طبعة اولى ـ بيروت .
٢٦ـ مراثي شواعر العرب ـ الاب لويس شيخو اليسوعي ـ طبعة اولى ـ بيروت .
٢٧ـ آثار ذوات السوار ـ لحشيشو ـ دبعة اولى ـ بيروت .
٢٨ـ شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام ـ النعمان القاضي ـ مصر ١٣٨٥هـ .
٢٩ـ مصر العربية ـ د. حسين نصار ـ الجمعية الادبية ١٩٦١ .
٣٠ـ مجلة الموقف الادبي ـ مقالة بعنوان الموثبات في الادب العربي ـ دمشق عددان في مجلد واحد ١٩٨٠ . المقالة بقلمنا .
٣١ـ مجلة الجامعة (الموصل) العدد الرابع ١٩٧٩ مقالة بعنوان نضال الوحدة واثره في الشعر قبل الاسلام . المقالة بقلمنا .

٣٢ـ مجلة المستقبل العربي ـ اصدار مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت العدد السابع ١٩٨٠ مقالة بعنوان : الشعر ونضال الوحدة في صدر الاسلام . بقلمنا .

المحتــويات

صدر من الموسوعة الصغيرة

١ ـ العرب والحضارة الاوربية ، د. فيصل السامر .
٢ ـ فلسفة الفيزياء ، د. محمد عبداللطيف مطلب .
٣ ـ الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي الاشتراكي عزيز السيد جاسم .
٤ ـ قضايا المسرح المعاصر ، سامي خشبة .
٥ ـ الصناعات البتروكيمياوية ومستقبل النفط العربي . محمد ازهر السماك .
٦ ـ الثورة والديمقراطية ، صباح سلمان .
٧ ـ دانتي ومصادره العربية والاسلامية ، عبدالمطلب صالح .
٨ ـ الطب عند العرب ، د. عبداللطيف البدري .
٩ ـ انغولا .. الثورة وابعادها الافريقية ، حلمي شعراوي .
١٠ـ معالجات تخطيطية لظاهرة التحول الحضري ، د. حيدر كمونة .
١١ـ مصادر الطاقة ، د. سلمان رشيد سلمان .
١٢ـ التراث كمصدر في نظرية المعرفة وابداع في الشعر العربي الحديث ، طراد الكبيسي .
١٣ـ التقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه الاجتماعية ، د. نوري جعفر .
١٤ـ الثقافة والتنظيمات الشعبية ، عبدالغني عبدالغفور .

١٥ـ العوامل المحفزة لنمو الدخل القومي ، د . كاظم حبيب .
١٦ـ فن كتابة الاقصوصة ترجمة : كاظم سعدالدين .
١٧ـ الاعلام والاعلام المضاد ، صاحب حسين .
١٨ـ استثمار المـــواد الكيمياوية والعضوية الملوثة للبيئة ، طارق شـــكر محمود .
١٩ـ مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، د . هاشم الطعــان .
٢٠ـ الانسان اخر المعلومات العلمية عنه ، ترجمـــة : كاميران قرهداغي .
٢١ـ الشعر في المدارس ترجمة : ياسين طه حافظ .
٢٢ـ من عصر البخار الى عصر الليزر ، د . اسامة نعمان .
٢٣ـ الاتصال والتغير الثقافي ، هادي نعمان الهيتي .
٢٤ـ المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب ، د . جعفــر آل ياسين .
٢٥ـ الصهيونية ليست حركة قومية ، بديعة امين .
٢٦ـ الدفاع المدني الشعبي ، صالح مهدي عماش .
٢٧ـ النسبية من نيوتن الى انشتاين ، د . طالب ناهي الخفاجي
٢٨ـ فن التمثيل عند العرب ، د . محمد حسين الاعرجي .
٢٩ـ الموسيقى الالكترونية ، د . علي الشوك .
٣٠ـ دراسة في التخطيط الاقتصادي ، د . يحيى غني النجار

٣١- الرواية العربية والحضارة الاوربية ، شجاع مسلم العاني.

٣٢- نقدالفكر البرجوازي المعاصر، ترجمة: يوسف عبدالمسيح ثــروه .

٣٣- الطاقة وآفاقها المستقبلية ، د . عادل كمال جميل .

٣٤- فن الترجمة ، ترجمة د . حياة شرارة .

٣٥- صورة الكون ، د . محمد عبداللطيف مطلب .

٣٦- مدارس النقد الادبي الفرنسي المعاصر . نهاد التكرلي .

٣٧- النهضة ، د . كمال مظهر احمد .

٣٨- الحرب النفسية ، د . فخري الدباغ .

٣٩- الانسان والبيئة ، ترجمة عصام عبداللطيف احمد .

٤٠- في علم التراث الشعبي ، لطفي الخوري .

٤١- مساهمة العرب في علوم الحياة ، عادل محمد حسين الشيخ علي .

٤٢- العنصرية الصهيونية ، د . عبدالوهاب المسيري .

٤٣- المصادر الاساسية للفنان التشكيلي المعاصر في العراق ، عادل كامل .

٤٤- سايكلوجية الطفل في مرحلة الروضة ، مدحت عبدالرزاق عبدالنبي .

٤٥- لمحات موجزة من تاريخ نضال الشعب العراقي ، صادق حسن السوداني .

٤٦- التكنولوجيا المعاصرة ، د. طه تايه ذياب و د. سامي مظلوم صالح .

٤٧- نظرية النظم . تاريخ وتطور . د . حاتم الضامن .

٤٨ـ الطفل هذا الكائن العجيب ، د. ضياء الدين ابو الحب
٤٩ـ في المسرح الشعري ، عبد الستار جواد .
٥٠ـ الكيمياء عند العرب . د. جابر الشكري .
٥١ـ نزعات انسانية في موسيقى بتهوفن ، غانم الدباغ .
٥٢ـ نظرات في علم الوراثة ، د. عبدالاله صائق .
٥٣ـ مقدمة في تاريخ العربية ، د . ابراهيم السامرائي .
٥٤ـ الاسطورة ، د. نبيلة ابراهيم .
٥٥ـ برج بابل ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا .
٥٦ـ التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط ، ترجمة وتعريب عادل ابراهيم يعقوب .
٥٧ـ الرواية والمكان ، ياسين النصير .
٥٨ـ التخطيط المعاصر للمدن ، د. باسم رؤوف .
٥٩ـ هذا هو الفارابي ، مدني صالح .
٦٠ـ اعلام في النحو العربي ، د. مهدي المخزومي .
٦١ـ حضارة الرقم الطينية وسياسة التربية والتعليم في العراق القديم ، ترجمة : يوسف عبدالمسيح ثروة .
٦٢ـ نظرات جديدة في مستقبل العمل الاذاعي ـ سعد البزاز.
٦٣ـ في صحة المجتمع . د. عبدالحسين بيرم .
٦٤ـ الرياضيات عند العرب . د. احمد نصيف الجنابي .
٦٥ـ الابعاد القومية لثورة مايس ١٩٤١ في العراق د. محمد مظفر الادهمي .
٦٦ـ جدلية ابي تمام د. عبدالكريم اليافي .
٦٧ـ المدخل لتاريخ العمارة العباسية وتطورها . شريف يوسف

٦٨- الطب البيطري عند العرب . د. طه حامد الشبيب .
٦٩- جماليات الفنون . د . كمال العيد .
٧٠- العلاج النفسي ، انواعه ، اساليبه ، مدارسه . د. فخري الدباغ .
٧١- ملامح من الشعر القصصي في الادب العربي د. نوري حمودي القيسي .
٧٢- تاريخية المعرفة منذ الافريق حتى ابن رشد .
٧٣- التزامن بين الحروب الصليبية والف ليلة وليلة عبدالغني الملاح .
٧٤- الدماغ البشري د. طارق ابراهيم حمدي .
٧٥- آراء في الكتابة والعمل الصحفي . وائل العاني .
٧٦- تيارات حديثة في الادب الالماني . د. مصطفى عبدالحميد
٧٧- هنا بدا التاريخ . تاليف س . ن كريمر ، ترجمة : ناجية مراني .
٧٨- ظهور الرواية الانجليزية . ترجمة د. يونيل يوسف عزيز .
٧٩- اضواء على حركة الشباب في القطر العراقي ، شامل عبدالقادر .
٨٠- المعجم العربي د. حسين نصار .
٨١- بين القادسية الاولى وقادسية صدام حسين . مهدي حسين البصري .
٨٢- ادارة الانتاجية . تاليف : جي . اي . فارادي ، ترجمة : ابراهيم عبدالله جرجيس . سلمان يعقوب العبيدي .
٨٣- الانسان في ادب وادي الرافدين . د. يوسف حبي .

٨٤ـ الثورة والسياسة الدولية . جمال عبدالرزاق البدري .

٨٥ـ تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي . د. عبدالجبار ناجي .

٨٦ـ اثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية . د. عمر الطالب .

٨٧ـ شعر الحرب عند العرب د. نوري حمودي القيسي .

٨٨ـ مقدمة في علم الآثار . د. تقي الدباغ .

٨٩ـ الطقس والمناخ . د. صباح محمود احمد .

٩٠ـ مدخل الى الشعر الاسود الامريكي . احمد مرسي .

٩١ـ الامراض النسوية في التاريخ واخبارها في العراق الحديث د. كمال السامرائي .

٩٢ـ الف ليلة وليلة في الغرب د. محسن جاسم الموسوي .

٩٣ـ تلوث البيئة وتخطيط المدن د. حيدر عبدالرزاق كمونة .

٩٣ـ تلوث البيئة وتخطيط المدن د . حيدر عبدالرزاق كمونة .

٩٤ـ سياسة عدم الانحياز وافاق تطورها.شريف جويد العلوان .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية في بغداد
(٧٧١) لسنة ١٩٨١

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الموسوعة الصغيرة
سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب
تصدرها دار الجاحظ للنشر

رئيس التحرير: موسى كريدي

الكتاب القادم :

جيل اودن

ترجمة
علي الحلي

السعر ٥٠ فلسا   دار الحرية للطباعة - بغداد